رباعيات

صلاح جاهين

تقديم يحيى حقي

مقدمة

الرباعيات هي أحب قوالب الشعر عندي؛ لأنها تعين على نفي الفضول وعلى التحرر من أسر القافية، فتجيء كل رباعية بمثابة الومضة المتألقة، أو بمثابة الحجر الكريم، قيمته في اختصاره إلى قلبه وصقله لا في كبر حجمه.

وقد يتوهم المتعجل أن أضعف بيت في الرباعية هو بيتها الثالث غير المقفى، ولكنه في نظري عمادها. ففي البيتين الأول والثاني عرض لأوليات الموقف، وفي البيت الثالث ارتفاع مفاجئ إلى قمة. قد تبدو للنظرة الأولى أنها جانبية ليتبعه فوراً من شاهق كأنه طعنة خنجر يختم بها البيت الرابع فصول المأساة.

البيت الرابع هو دقة المطرقة على السندان بعد أن كانت مرتفعة في الهواء لذلك أكره للبيت الرابع أن يجيء على صيغة الاستفهام لأن حبله ممدود.

أسارع هنا لأستشهد برباعية في هذا الديوان الصغيرة الحجم القوي الأثر كأنه "قنبلة يدوية" الذي أخرجه سنة ١٩٦٣ الفنان الشاعر الأستاذ صلاح جاهين باللغة العامية والذي يسعدني اليوم أن أقدمه للقراء.

الرباعية السابعة تقول :

"خرج ابن آدم من العدم،وقلت ياه..
رجع ابن آدم من العدم وقلت ياه..
تراب بيحيا وحي بيصير تراب
الأصل هو الموت ولا الحياة ؟
عجبي."

فإني أحس أن البيت الثالث ليس هو حركة الارتفاع، بل هو حركة السقوط، من شاهق هو الختام، والسؤال االذي جاء بعده لغو، يزيد من ضعفه أنه جاء على هيئة استفهام حبله محدود.

وينبغي كذلك أن لا يكون البيت الثالث استمرار لعرض الأوليات الواردة في البيتين الأول والثاني بل تتمثل فيه كما قلت حركة جانبية مفاجئة، وهي في نظري حركة ارتفاع ليتحقق بها طعنة الخنجر الذي يهوي بها البيت الرابع.

وهذا العيب يتمثل مع الأسف في الرباعية الأولى لصلاح جاهين التي تقول :

"مع إن كل الخلق من أصل طين
وكلهم بينزلوا مغمضين
بعد الدقايق والشهور والسنين
تلاقي ناس أشرار وناس طيبين
عجبي.."

فالبيت الثالث هنا لغو لأنه استمرار في العرض، لا تتمثل فيه حركة جانبية وزاد من ضعف هذا البيت الثالث أنه جاء على روى الرباعية مع أن الأصل فيه، وحلاوته، أن يكون على خلافها.

يؤسفني أن أكون قد بدأت بالنقد. هكذا شاء استطراد الكلام. اصبر قليلا تجدني من أشد المعجبين بصلاح جاهين وديوانه "الرباعيات".

الكمال الذي أنشده يتمثل في الرباعية الآتية :

"دخل الشتا وقفل البيبان ع البيوت
وجعل شعاع الشمس خيط عنكبوت..
وحاجات كثير بتموت في ليل الشتا..
لكن حاجات أكثر بترفض تموت
عجبي.."

في البيتين الأول والثاني عرض للأوليات، والبيت الرابع. دقة المطرقة – لم يتحقق أثره إلا لأن البيت الثالث "الخارج عن الروي" قد خدعنا بتأكيده أن أشياء كثيرة تموت في الشتاء. فإذا بنا نفاجأ كأننا نسقط من شاهق أن أشياء أكثر ترفض أن تموت في الشتاء.

وانظر أيضاً إلى الرباعيات الآتية :

"مرحب ربيع مرحب ربيع مرحبة
يا طفل ياللي في دمي ناغي وحبا
علشان عيونك يا صغير هويت
حتى ديدان الأرض والأغربة
عجبي.."

فكلمة "هويت" في البيت الثالث خادعة، يخيل إليك أن جاهين يحب القمر والزهور والجمال، ولكنه يفاجئك بعد هذا الارتفاع بهبوط من شاهق فإذا هو يحب كذلك ديدان الأرض وأغربتها.

والضوابط التي ذكرتها لك ليست مانعة – ليس في الفن قيود كالحديد – غلبة الأمر أنني أفضل القالب الذي وضعته على غيره، لذلك ينبغي لك أن لا تأخذ في رباعيات جاهين كل سؤال على أنه ينتهي بعلامة استفهام. إنه في أحيان كثيرة ينتهي في حقيقة الأمر بعلامة تعجب أشبه ما تكون بعلامة استفهام وهي ليست كذلك. فهذه الرباعيات لا ينطبق عليها تمحكي في وصفها بالضعف لأن البيت الأخير ينتهي بسؤال، وكذلك لم أكره في رباعيات أخرى كثيرة أن يكون البيت الثالث شطرة غيرة منفصلة عن شطرة البيت الرابع ويكون الختام مقسماً على البيتين معاً، وتكون الرباعية في حقيقة الأمر – إذا كان المعنى هو القياس لا الوزن – ثلاثية.

فمن أمثلة علامة التعجب المختفية في زي علامة استفهام :–

"وأنا في الضلام من غير شعاع يهتكه

أقف مكاني بخوف ولا أتركه
ولا ييجي النور وشوف الدروب
احتار زيادة : أيهم أسلكه ؟
عجبي."

فليس هذا باستفهام محتاج إلى جواب. لا معنى أن تقول له خد جوابك "خذ هذا الدرب اليمين" أو "هذا الدرب شمال". أما في سؤال: "الأصل هو الموت ولا الحياة ؟" فإنه قطعًا يحتاج إلى جواب ولو بقولك: "لا أدري".

ومن أمثلة الرباعيات التي التحم فيها البيت الثالث والرابع.

"غدر الزمان يا قلبي مالهوش أمان
وحاييجي يوم تحتاج لحبة إيمان
قلبي ارتجف وسألني أأمن بايه؟!
أأمن بأيه محتار بقالي زمان
عجبي."

ولكن هذه الرباعية وأمثالها تأسرك بجمالها الفاتن وبراعة لفظها ورقة معانيها وعمقها فيمتنع عليك أن تحس بأنها في حقيقة الأمر ثلاثية.

والرباعيات هي أفضل القوالب للشاعر الفيلسوف الذي يريد أن يعرض علينا مذهبه، لا في بحث فقهي أو في تتابع منطقي بل في ومضات متألقة. الديوان حينئذ يأخذ شكل العد الذي تنسلك فيه حبات من حجار كريمة مختلفة المياه ولكنها تنبع جميعًا من معين واحد.

إياك أن تظن أنك تستطيع أن تتبين غوره، فهذا الحصى اللامع الذي تظن أنه في متناول يدك إنما هو غارق في قاع سحيق، وما قربه إلا من خداع انكسار الضوء في الماء. الديوان هو حياة الشاعر ولكنه لا يعرض عليك أيامها بالتتابع بل يختار منها لحظاتها الفريدة. قد تقرأ أنت الديوان في ساعة ولكنك تحس أنك عشت مع الشاعر طوال حياته الشعورية المديدة، وإياك أيضًا أن تغفل أن الصورة التي هي أمامك هي من جنس هذه الصور التي يختلف نطقها باختلاف زوايا النظر، إليها هكذا علمنا عمر الخيام أمام الرباعيات

الرباعية الواحدة تنبئ عن إقبال شديد على الحياة وإكبار لها. وتعلق بها، وتنبئ في الوقت ذاته عن الاستهانة بهذه الحياة واحتقارها لا تدري أهي لذة حسية أم هي لذة روحية ؟ أمتفائل هو أم متشائم مؤمن ؟ هو أم كافر ؟

إن كانت الحيرة مؤلمة فليس هنا لذة تفوق لذة هذه الحيرة التي يلقيك عمر الخيام في أحضانها أو بين مخالبها، ذلك لأنها ليست ناجمة من أنك تجد نفسك في فراغ من حوله فراغ، بل لأنك في قلب دوامة تدور من حولك لا تعرف أين رأسها من ذيلها، هذا هو عين الخدر الذي يحبه الكبار الذين يركبون أرجوحة الصغار.

وإذا كنت تمتعت بهذا الخدر على يد عمر الخيام فإني قد تمتعت به أشد المتعة على يد صلاح جاهين. هذه الرباعيات هي صلاح جاهين وصلاح جاهين هو هذه الرباعيات، لذلك لم يجد غضاضة من أن يتخذ من نفسه هو مرجعًا لكل رموزه، فقد وصف نفسه بأنه قرين مهرج السيرك لا تدري هل هو يضحك أم يبكي.. هل هو مطمئن أم خائف ؟ هل هو مستسلم للحياة أم رافض لها ؟.. هل هو يؤمن بالبشر أم يكفر بالفناء أم بالبقاء ؟.. هل يعطف على ضعف الإنسان أم يضيق به ؟.. قد لا تعرف كيف تجيب على هذه الأسئلة. ولكنك ستعرف ولا ريب شيئًا واحدًا لا يمكن لك إنكاره: هو أنك لقيت عنده السعادة التي كنت تتمناها ولا تجدها: أن تقابل فنانًا أصيلاً لأحد لإنسانيته ورقته وصدق نظرته وعمقها، هو وحده الذي يجود عليك بفيض الكريم.

***

تنم رباعيات عمر الخيام عن أنها لم تتشكل إلا بعد أن استقر ربها على رأي فلسفي في الحياة، نضج عنده أولا وتحدد، ثم تكامل واتسق. وحتى إذا كان قوام هذا الرأي القاطع هو الحيرة، فإنها حيرة مقننة ثابتة، إنه المحور المرسوم من قبل الذي تدور عليه الرباعيات جميعها، كل واحدة منها تقيس منه وتنعكس عليه، كل رباعية جزء فيه خصائص الكل، يكشف ويعرف به، فلا نشعر ونحن نمضي في قراءتها أننا نشهد تشييدًا متعاقبًا لبنيان لا نعرف كيف يكون إلا بعد تمامه. الرباعيات تتعلق بالرأي وحده دون صاحب الرأي، فليس فيها إشارة تنبئ عن شخصيته أو هيئته أو صفاته.

أما صلاح جاهين فقد كتب رباعياته منجمة، في كل عدد من صحيفة أسبوعية واحدة، وما أظنه دار في خلده أو في خلدنا وهو يفعل ذلك أنه يعكس في هذه الرباعية خصائص الكل لرأي فلسفي في الحياة نضج واستقر في ذهنه، بل خيل إليه – كما خيل إلينا – أنه ترك حبله على الغارب. ما وقع في شبكته من صيد فهو قانصه، يستمد الرباعية مرة من عالم الفكر وحده، ومرة من مشاهدة المحسوس، ولا بأس عليه أن يشير أحيانًا إلى شخصه فنعلم مثلا أن صلاح جاهين رجل بدين.

"بين موت وموت بين النيران والنيران
ع الحبل ماشيين الشجاع والجبان
عجبي على دي حياه.. ويا للعجب
ازاي أنا – يا تخين – بقيت بهلوان
عجبي.."

ولعله ذهل – كما ذهلنا نحن – حين جمع هذه الرباعيات أخيرًا في كتاب لا يزيد حجمه على حجم كف الصبي الصغير فإن هذه النفثات المنجمة المتناثرة نطقت – وبعضها ينضم لبعض – بأنها جميعًا وليد رأي فريد في الحياة، له اتساقه وله بدنه الواحد رغم تعدد وجوهه لا تجده إلا عند صلاح جاهين. ومع ذلك فنحن لا نشعر أن هذه الرباعيات تدور حول محور مرسوم من سابق، بل تشهد وحيًا منوعًا لفكرة لم تتمركز، وظل يدور حولها.

فهذه رباعية تكتفي بتسجيل الواقع المحسوس:

"صوتك با بنت الآيه كأنه بدن
يرقص يزيح الهم يمحي الشجن
يا حلوتي وبدنك كأنه كلام
كلام فلسفة سكروا نسبوا الزمن
عجبي."

ويخيل إلىّ أن صلاح كتبها بعد أن حضر مجلساً جمع بين الرقص والغناء.

ولكن الرباعيات شيدت فوق هذا الحجر البسيط تعبيرا فلسفيا عميقا تحول فيه الرقص من حركات مادية إلى رؤية عجيبة للحياة، نكاد نشهق لها. فنقرأ هذه الرباعية الجميلة التي بلغت من الفن ذروته :

"رقاصة خرسا ورقصة من غير نغم
دنيا.. يا مين يصالحها قبل الندم
ساعتين تهز بوجهها يعني لا
يترجرجوا نهديها يعني نعم
عجبي.."

وهذه رباعية محدودة الأفق، لعلها هي الأخرى مستمدة من لعب صلاح جاهين مع ابنه في يوم عيد:

ولدي.. إليك بدل البالون ميت بالون
انفخ وطرقع فيه على كل لون
عساك نشوف بعينيك مصير الرجال
المنفوخين في السترة والبنطلون
عجبي."

يرفع صلاح فكرتها البسيطة التي تقابل مزاحها بابتسامة خفيفة إلى مقام لنظرة الشاملة : هيهات لنا أن نبتسم ونحن نقرأها:

"إنسان.. أيا إنسان ما أجهلك
ما أتفهك في الكون ما أضألك
شمس وقمر وسدوم وملايين نجوم
وفاكرها يا موهوم مخلوقة لك ؟
عجبي."

لم يكربني هذا التفاوت الملحوظ في مستوى الرباعيات، بل بالعكس فرحت به وشكرت لصلاح أن أتاح لي أن أشهد تشييد بنائه الفذ البديع من أساسه.

ذهلنا كثيرا حين رأينا الرباعيات قد كشفت، بعد اجتماعها، عن رأي واحد ينظمها. وذهلنا أكثر حين تبين لنا أنه ليس برأي سطحي أو ساذج لا يرتفع ماؤه رغم جماله وصفائه عن رسغ القد. إنه ليس بمثابة رد فعل كنقرة على وتر يستهلكها صداها الذي يموت سريعًا ضعفًا كأنه أزيز بعوض ثم صمت وفراغ، بل هو ماء كالبحر الخضم الذي يصعب عليك أن ترى ساحله، إنه يبتلعك فتغوص فيه، وهيهات أن تصل إلى أعماقه، متعدد الأمواج والألوان. إن نقرة الوتر لها دوي مهول لا ينقطع، تكاد تضع كفيك على أذنيك من شدة وقعه وإلحاحه. إنه كالغابة المتشابكة يتكشف لك عند كل خطوة منظر مختلف. أنت ماض في سبيلك ولكنك ربما تكون قد ضللت الطريق من حيث لا تدري وكأن الغابة تستدرجك عن عمد لتفنى بين أحضانها.

ولكني أعتقد أن امتحان هذا الرأي أشد دخولا في التحليل النفسي منه في الفلسفة، فالصلة بين الرأي وصاحب الرأي وثيقة جدًا، فالرأي هنا هو في الحقيقة طبع ومزاج، وما قصد صلاح في ظني أنه يقدم لنا مذهبًا فلسفيًا متكاملاً يختص به، بل غاية مطلبه ولذته أن يكشف لنا عن معدن رحه، من وراء أستار شفافة ملونة كقوس قزح.

وقد يقف المستحيل أو الجاف النيئ الإحساس عند بهرجة الألوان ولا يتعداها ولعمري إنه معدن فذ نفيس عقد غاية التعقيد كأنه اللغز. لذلك سيتحول كلامي عن الرباعيات إلى أسرار تكوينه الذاتي الذي هو الأصل في هذه الرباعيات.

وأزعم لك أني اهتديت – فيما يخيل إليّ – إلى مفتاح اللغز. إلى الأرض التي أقيم البناء من فوقها فسترها إلى طرف الخيط الرئيسي الذي لا يستقيم إلا به تتابعه وتفك عقده، فهذا الخيط كرة متشابكة متداخلة ملتفة بحيث ينبهم عليك من أين تمسكه، وقد تقع على طرف فتجذبه فينتهي سريعًا بين يديك، تاركًا الكرة على حالها وسرها أنه منها ولكنه عنصر ثانوي لا يصل إلى قلبها.

ولكن حاشا لي أن أزعم أيضًا أنني اهتديت إلى الحق كله أو بعضه فما أبين إلا عن رأي شخصي، كما يحتمل التصديق يحتمل التكذيب رغم الحجج التي وثقت بها، لأنني أحببت صلاح وخالطت شعوره بشعوري إلى درجة التوحد والاندماج.

***

أكرر هنا كلمة الذهول لأصف بها إحساسي حينما وجدت أن اثنتين من الرباعيات – مدسوستين بين أخواتهما – تنفردان عن بقية الكتاب انفراد العنصر الدخيل الغريب الذي لا مبرر لوجوده، لشدة تعارضه مع الأصل تعجبت من أين ولماذا جاء وما معنى وجوده ؟

الرباعيات كلها نزهة جميلة يخالط دعابتها حزن رقيق وأسى غير ممزق، لأنه يضع يده دائمًا في يد الأمل. أما هما فصرختان أو لولتان بالليل البهيم يرتجف لها القلب. فبدأ منهما تفهم صلاح، بل قد نرتد معه إلى طفولته. إنه أولا خائف من الخوف" وهذا أقسى أنواع الخوف. اسمعه يقول :

"سهير ليالي وياما لفيت وطفت

وفي ليلة راجع في الضلام قمت شفت

الخوف. كأنه كلب سد الطريق
وكنت عاوز اقتله.. بس خفت.
عجبي!!"

الطفل يرى الكلب بالليل فيحس بالخوف يرج قلبه، ولكن صلاح لم يصادف في طريقه كلبًا، بل صادف لخوف ذاته، وقف أمامه وجهًا لوجه. الخوف هنا ليس شعورًا داخل القلب، بل هو مخلوق حي له شخصه وكيانه أنه يطلع على الناس فيرونه رأي العين، لكن تحديقه في صلاح شل قدرته على تبين ملامحه فلم يستطع أن يراه في وهمه إلا في صورة كلب يسد الطريق. وهذا التشبيه المسعف هو ولا ريب من ذكريات الطفولة. أغلب الظن أنه يرجع إلى حادثة وقعت فعلاً لصلاح في طفولته. أدرك صلاح وهو يعاني الحياة أن الكلب الذي أخافه في طفولته إنما هو رسول هزيل لمخلوق أشد هولا وإرهابًا. ويعترف صلاح بصراحة أنه لم يقتحم الطريق، إنه خاف من الخوف، فلم يقل في نهاية الرباعيات مثلا: "قمت زغت".

وقد يوهمك صلاح في هذه الرباعيات أنه يروي لك لقاءً عارضًا حدث له ذات ليلة، دلالة متصورة على شخصه، وربما أوحى صلاح لك بأن هذه الدلالة تشمل كل الناس، نطاقها هم البشر وليس غير، وأن لا خوف حيث لا إنسان. ولكن لا، إن الخوف عند صلاح يرتفع إلى مقام التفسير الشامل الكلي للكون كله، بنجومه وأفلاكه وسديمه وأجزم أن الرباعية التالية فريدة في الشعر العربي كله، لا أعرف لها مثيلا في روعتها وشد وقعها في القلب، ولا في رسم صور للكون من خلال رؤية وليدة الزلازل والبراكين التي صَحبَت مخاض النشأة الأولى :

"كان فيه زمان سحلية طول فرسخين
كفين عيونها: وخشمها بربخين
ماتت، لكن الرعب لم عمره مات
مع أنه فات بدل التاريخ تاريخين
عجبي!!"

لا معنى لهذه الرباعية إلا بالتفسير الذي أزعمه، وصلاح يصدر فيها عن فكرة الرجل البدائي، الذي يسارع إلى تحويل الظواهر الكونية إلى قوى شريرة تسكن العالم السفلي، تتمثل له في شكل حيوانات أو حشرات مؤذية فالكون عند صلاح لا يزال يثير الرعب كما أثاره يوم النشأة الأولى. إنها انتهت ولكن الرعب باق رغم مر القرون. الخوف يتمثل لصلاح فيراه في صورة كلب، والرعب يراه في صورة سحلية، والكلب والسحلية رمزان لهيمنة قوة الشر الكامنة في الكون، يقف الإنسان أمامها عاجزًا مسلوب الإرادة رغم ما يعتلج به قلبه من حب للحياة والخير والجمال.ومن هنا تأتي الحيرة في فهم الكون وقدر الإنسان.

ولعل أول مشهد يراه الطفل عندنا يتمثل فيه التردد في فهم الفرق بين العدم والوجود، بين الموت والحياة. هو ذيل السحلية حين ينهال عليه القبقاب فينقطع وينفصل عن الجسد. إنه يظل – وهو الموت – يتلوى ويتحرك، ويحدق فيه الطفل بعين مذهولة، وقد وقر في نفسه أيضًا أن السحلية – دون سائر الحيوان –

تتكلم، فهي ترج لسانها على سقف حلتها فيصدر منها صوت كأنه تنادى به الناس، فيرد عليها أصحاب البيت قائلين: "صاحب البيت اسمه محمد" تشفعًا بالرسول لدفع شرها وأذاها. فمخاوف صلاح جاهين مخاوف الطفل أو الرجل البدائي كامنة في أعماق قلبه.

قلما نصادف كلمة الخوف، أو الرعب بعد ذلك في الكتاب ولكننا نحس بأثرها في رباعيات قليلة أخرى لا يستقيم تفسيرها إلا به. انظر إلى الرباعية التالية :

"ورا كل شباك ألف عين مفتوحين
وأنا وأنتي ماشيين يا غرامي الحزين
لو التصقنا نموت بضربة حجر
ولو افترقنا نموت متحسرين
عجبي!!"

هذه عيون يخاف منها صلاح، إنها عيون القدر المترصد بالشر، الذي يفرق بين الحبيب وحبيبته. والشر هنا معناه أن لا مناص للإنسان من الوحدة في هذه الحياة، وأن اللقاء مؤجل – إن كان هناك لقاء – إلى عالم الأرواح. إن صلاح يرتجف أيضًا من الوحدة. ولعل صلاح وقت أن كان طفلاً يلعب في الحارة لم ينقطع عنه الإحساس بأن من وراء شباك البيت عينا تراقبه، إنها رغم حنانها تأسره وتقيده وتفسد عليه لعبه. وصلاح خائف أيضًا من شيء آخر، هو الفناء:

"أحب أعيش ولو أعيش في الغابات
أصحى كما ولدتني أمي وأبات
طاير.. حيوان.. حشرة.. بشره بس أعيش
محلا الحياة.. حتى في هيئة نبات
عجبي..".

الخوف من العدم والفناء هو الذي يجعل لمجرد الوجود روعته وبهاءه. ولكن الرباعية توحي بأن صلاح لا يجعل كلمة "العيش" تعني "الوجود" وحده، بل تعني قبل كل شيء الفهم والقدرة على التمتع. إنه ليس بفهم عقلي يختص به الإنسان، بل فهم فطري غريزي يشاركه فيه الحيوان والنبات.

وأخيراً يكتب صلاح كل مخاوفه الأرضية والكونية في رباعية واحدة:

"لو كان فيه سلام في الأرض وطمان وأمن
لو كان مفيش ولا فقر ولا خوف ولا جبن
لو يملك الإنسان مصير كل شيء
أنا كنت أجيب للدنيا ميت ألف ابن
عجبي!!".

هذه هي بلاوي الدنيا، يُتوّجُها بلاء كوني هو عجز الإنسان عن التحكم في المصير.
وانظر إلى كلمة الخوف التي اندست بين بلاوي الدنيا، فقد نطقت بدلالة لم تكن لتتبين إلا على ضوء الرباعيتين من اللتين بدأت بهما حديث الخوف.
هذه هي بداية الخيط الذي سنفهم بفضله – وهو يقودنا – بقية الأسرار التي ينطوي عليها قلب صلاح جاهين – وهي شعوره بالخوف. ولولا هذه البداية لما استطعت وفقا لمنطق متسق – على الأقل في تقديري – أن أتتبع اتصال النمو الشعوري المنعكس من بقية الرباعيات رغم تبعثرها وقفزاتها وازدواج وجهها. فبخطوة متوقعة يسيرة ينتقل صلاح من الشعور بالخوف إلى الشعور بشلل الإرادة، فلا تفسير لهذا الشلل إلا بهذا الخوف المبدئي والبدائي. إنه شلل تام يكاد يشبه الموت، بل هو الموت بعينه :

"ودخل الربيع يضحك لقاني حزين
نده الربيع على اسمي لم قلت مين
حط الربيع أزهاره جنبي وراح
وايش تعمل الأزهار للميتين
عجبي.."

صلاح لم يتحرك بإرادة ليقطف بيده أزهار الربيع، بل الربيع بجلالة قدره هو الذي تقدم إليه، ونادى عليه باسمه، ووضع الأزهار جنبه، ومع ذلك لم يستطع صلاح أن يفتح فمه ويقول: "من؟" أو يمد يده ليأخذ الأزهار أو حتى يصوب إليها منخريه لشمها لأنه مشلول الإرادة، يحسب نفسه من الأموات.
وبخطوة أخرى يسيرة متوقعة ينتقل صلاح فيمر من الشعور بشلل الإرادة إلى الشعور بالملل، إذ لا فهم لهذا الملل إلا إذا أرجعناه لشلل الإرادة:

"أيوب رماه البين بكل العلل
بعد سبع سنين مرضان وعنده شلل
الصبر طيب. صبر أيوب شفاه
بس الأكاده مات بفعل الملل
عجبي..".

سأتكلم فيما بعد عن أن قيمة صلاح في نظري راجعة إلى أنه يخاطب بغير إفصاح ضمير القارئ بكل ما يختزنه من تراث دفين، ولكني أراه في الرباعية السابقة يهزأ بهذا التراث ويستبدل به صورة جديدة. فالمستقر في ذهني مثلا – شأني في ذلك شأن بقية العامة – أن أيوب ابتلي بمرض جلدي، وكان يدور على بيوتنا ونحن صغار باعة ينادون على عشب بري هو "رعرع أيوب" فكنا من كلمة "رعرع" وحدها نفهم أنه مصاب بقروح. رعرع هي نضارة الجلد وسلامته وبعد برئه من قروحه. هي في ذهننا مرهم مرطب يوحي بنضارة ورق الشجر في الربيع، ونتصور أيوب أنه كان جالسا تحت شجرة. وإذا أردت التأكيد من صدق هذا الشعور – الذي اسمه بالتراث الدفين – أعود للروايات التي وردت في كتب التفسير فأجد بعضها ينص

على أنه كان مبتلى بالجدري، فصورة أيوب في ذهني هي صورة رجل منبوذ بالعراء، يتجنبه الناس حتى أقرب أقربائه، ولكنه ليس مشلول الجسم بل بالعكس إنه دائم الحركة يحك جلده بأظافره، وليس هو أيضًا بمشلول الإرادة، لأنه متعلق بالشفاء بإصرار يثير الإعجاب والتقزز في آن واحد، ولكن الكلام الذي قلته سابقًا عن شلل الإرادة هو الذي يفسر كيف أن صلاح حدد وعين مرض أيوب بأنه الشلل. وكلمة مشلول في هذه الرباعية توحي بأنه كان مشلول الجسم والإرادة معًا. وقد شفي أيوب عند صلاح ولكن.. الأكادة أنه مات بفعل الملل، الملل الذي هو وليد شلل الإرادة. فأيوب هنا ليس النبي، بل هو الإنسان الحديث كما يراه صلاح في نفسه، وصلاح هنا متصل شعوريًا ببودلير.وانظر إلى خفة الدم في كلمة "فعل" في هذه الرباعية، إنها مقتبسة رأسًا من قاموس العامية لا الفصحى.

أتجاوز عن الخطوة المتوقعة التالية لأقفز إلى نتيجة بعيدة لهذا الشعور بالشلل والملل، لأنني أريد أن أفرغ من رباعية فريدة لا أحب أن أتناولها إلا بإيجاز شديد.

وأرجو أن يكون ما وهبه الله لصلاح من قدرة صادقة هائلة على الدعابة قد قضى على سمها وبث الصلة اللعينة بينها وبين رباعيات الشلل والملل، إنها الرباعية التي أسميها – مكرها – رباعية النزعة الانتحارية، لأنني أفضل أن لا أرى فيها إلا دعابة خالصة لا تؤخذ مأخذ الجد.

"الدنيا أوده كبيرة للانتظار
فيها ابن آدم زيه زي الحمار
الهم واحد.. والملل مشترك
ومفيش حمار بيحاول الانتحار
عجبي.."

والانتظار هنا يعني كشوق الروح للخروج من سجنها واللحاق بملكوت الجمال المطلق، الجمال الإلهي. وسنرى فيما بعد أن هذا التشوف كان وراء حزن صلاح وثورته على ضعف الإنسان وفساد أصله، إنه تلهف على قدوم الحبيب، على الظفر بشيء جديد في عالم رتيب، عالم جنون أيضًا، ولكن الكلمة تخاطب كذلك ضمير القارئ في مستويات أدنى. الانتظار من أهم بلاوي العالم الحديث، انتظار في عيادات الأطباء، أمام مواقف الأتوبيس، في ذيل طابور أمام باب السينما، انتظار قدوم يوم القبض. وكلمة الانتظار هنا تعني أن كلمة الملل التي تبعتها، إذ أصبحت الكلمتان عندنا مترادفتين وتأمل تكرار نغمة الملل في هذه الرباعية أيضًا.

وسنرى فيما بعد أننا لو استثنينا رباعية واحدة تتحدث عن العندليب – وأراهن أن صلاح لم ير العندليب قط بل لا يعرف ما هو شكله، ولكنه عنده طائر خرافي يمثل الرقة والجمال، أرقى من البلبل والكروان والهدهد، تلك الطيور التي تسبح في جو هذا الوادي ويعرفها صلاح – أقول لو استثنينا هذا العندليب الخرافي سنجد أن الحيوان الذي ورد ذكره في الرباعيات كلها هو الكلاب والخنازير والتماسيح والسحالي والدود. نضم إليها كلمة "الحمار" الواردة في الرباعية السابقة، إنها من جنسها. وهي توحي أيضًا بشيء من الضجر والحنق

يبعثان إلى أن تكون له رفسة مثل رفسة الجواد العريق إذا وقع في يد ظالم لا يرحمه ولا يحترم كرامته. هذا أيضًا سنراه فيما بعد حين نتكلم عن استخدام صلاح لكلمة "طنط" أو "تف".

***

إذا ولجنا من أبواب ثلاثة متلاحقة في دهليز مظلم هي أبواب الخوف والشلل والملل، أفضينا إلى ميدان فسيح مترامي الأطراف، ومع ذلك تظلله كله – رغم صغرها – ظل راية واحدة ترفرف فوق سارية عالية في وسطه.. راية الحزن، من حرير أسود جميل شفاف، نسجته العذارى، والجفون مسبلة على النهود، بأصابع تتكتم رعشة الصبان والحنان، تغار حاسة اللمس من حاسة النظر عند التطلع لهذه الراية من بعيد. إنه الحزن الذي يجتره أهل الشرق بتلذذ وتنعم، يختلط عندهم بالتأسي على النفس أولا ثم على البشر كافة، لأن جذوره متصلة باعتقادهم في القدر الذي لا مهرب منه. لن يخدعنا صلاح وهو يصف نفسه تارة بالبهلوان، وتارة بالمهرج، فإن النغمة الغالبة على الرباعيات هي نغمة الحزن، لا لأن صاحبه قد مسته الحياة بضر في صحته أو رزقه أو عواطفه، بل لعل الحياة كانت به شديدة الترفق، كريمة لم تبخل عليه بشيء – وإنما هو حزن وليد التزمل في هذا الكون المجهول وفي أسراره الغامضة، وليد الحيرة في فهم وضع الإنسان فيه، وهل هو مجبول على الشر، لا حيلة له في جبلته. إنه حزن سامٍ يرتفع عن الأرض، طاهر كالبحر لا يعكره دنس، ولو كان جثة الكفر الذي تسلل واقتحم ثم عام وسبح فغرق، وإن بقيت أواخر صرخاته تدوي في الأذن. إنه حزن نروح تتشوف للخلود لا حزن جسد يوقن أنه فانٍ، وصلاح يتأمل الكون، ويتأمل الإنسان ولا يسفر هذا التأمل إلا عن هذا الحزن الدفين.. إنه لا يحس به في نفسه وحده بل يراه في كل العيون.

"أعرف عيون هي الجمال والحسن
وأعرف عيون تأخذ القلوب بالحضن
وعيون مخيفة وقاسية، وعيون كثير
وبنحس فيهم كلهم بالحزن
عجبي.."

آه.. كم أطال صلاح تأمل العيون لا بنظره بل بقلبه. أحس منها بشكله الوجِع الأبكم. ولكنه ليته أضاف إلى عيون البشر عيون الحيوان أيضًا!

الرباط الذي يجمع الناس جميعًا عند صلاح هو رباط الحزن المكتوم، وقد بلغ من شيوع هذا الحزن أن أصبح مألوفًا، وفقد بالتالي روعته وجلاله.

"يا حزين يا قمقم تحت بحر الضياع
حزين أنا زيك وأيه مستطاع
الحزن ما بقالهوش جلال يا جدع
الحزن زي البرد.. زي الصداع
عجبي.."

أصبح علاج صلاح لهذا الحزن هو السخرية به، إذ هان قدره لشدة ألفه به. ولكنه قبل ذلك يسخر من نفسه. لأنه رغم هوان هذا الحزن فهو عالق به كأنه دودة علق لا يستطيع أن ينفضها عنه.

وسنرى فيما بعد أن خشبة النجاة التي يتعلق بها صلاح هي السخرية والدعابة.. سخرية طيبة غير لاذعة، ودعابة غير مروضة ولا مخلوعة العذر.

وهذه الرباعية تخاطب التراث في ضمير القارئ، فدلالة القمقم مستمدة من ألف ليلة وليلة، وتذكرنا بقصة العفريت الذي ظل دهوراً طويلة محبوساً في قمقم في قاع البحر إلى أن استنقذه صياد مسكين. ولولا هذا التراث لما أفصح النص اللغوي وحده عن الإيحاءات المقصودة منها. آه.. كم أنت إنسانٌ يا صلاح، حتى إنك لتؤاخي حتى العفاريت وتنفق عليهم.

ولكن لماذا يحتضن صلاح جاهين كل هذا الحزن على صدره العريض ومن فوق لغز يبتسم بسخرية حلوة ودعابة محببة ؟ إنه يمر في رباعياته مر الكرام بالهموم المعاشة والاجتماعية. إنها خارجة عن مجال قلقه واهتمامه، لا تستوقف إلا فلتة وقليلا، كدح الإنسان في سبيل رزقه، خوفه من العجز عن تأمين هذا الرزق ولو بأدنى حد يصون له آدميته. حرصه على تملك حريته وإرادته بين إخوانه داخل حدود بلده وخارجها لا جور منه أو عليه، المظالم الاجتماعية، لماذا كان غني وكان فقراً تخمة ومجاعة، علم وجهل؟ ما هذا القانون المثالي للمعاملات الفردية والاجتماعية؟ كل هذا يتركه صلاح جانبا ويكتفي في رباعية واحدة بنفثة عميقة من صدره العريض تنبئ بأنه يحلم بوضع مثالي، كأنه بعيد المنال، أن يسود في الوطن والعالم كله أمن وسلام وطمأنينة وتعاطف.

"غمست سنك في السواد يا قلم
عشان ما تكتب شعر يقطر آلم
مالك، جرا لك أيه يا مجنون.. وليه
رسمت وردة وبيت وقلب وعلم
عجبي.."

وليس معنى هذا أن صلاح يستصغر ضغط الهموم المعاشة، بل ينبغي للإنسان في رأيه أن يتحرر منها ولكي يفرغ لهمومه الروحية ولكي يملك القدرة على تذوق الجمال، فهو في رباعية فريدة يسخر بظرف وبرفق من أستاذه وإمام طريقته عمر الخيام لأنه لا يشغل نفسه بهذه الهموم المعاشة:

"ياللي نصحت الناس بشرب النبيت
مع بنت حلوة وعود وضحك وحديث
مش كنت تنصحهم منين يكسبوا
ثمن دا كله؟ والا يمكن نسيت
عجبي.."

وكذلك لا يحبس صلاح نفسه طويلا في المجال الأخلاقي. إنه لا يقول لنا ما الذي يحبه. العفة والوفاء والصدق لا ترد على لسانه، بل يقول لنا ما لذي يكرهه. إنه يكره النفخة الكدابة. فالإنسان عنده مثل بالون الأطفال، يكفي أن تلمسه بسن إبرة حتى ينزل على فاشوش. صلاح يكره النفاق:

"حبيت.. لكن حب من غير حنان
وصحبت.. لكن صحبة مالهاش أمان
رحت لحكيم وأكثر لقيت بلوتي
أن اللي جوه القلب مش ع اللسان
عجبي.."

ويكره القسوة والاستغلال الظالم.

"قالوا الشقيق بيمص دم الشقيق
والناس ما هياش ناس بحق وحقيق
قلبي رميته وجبت غيره حجر
داب الحجر.. ورجعت قلب رقيق
عجبي"

ولكن كرهه الأشد الذي يرجه رجا منصب على تعذيب الإنسان لأخيه الإنسان، فينحط دون مرتبة الوحوش الضارية، إنها تفترس لتأكل ولكنها لا تعذب لتتلذذ بالانتقام. وكأنما فقد صلاح بقية أمله في أن يبذل الإنسان شيئا من جهده لعون أخيه، فكل مناشدته له أن لا ينقلب عليه هو الآخر وبلا تهون بجانب الويلات التي يعانيها في هذا الوجود المطبق عليه كأنه قيد من حديد ليست البلوى أنه لا يلين، بل لا يبين..

"أنا كل يوم أسمع.. فلان يعذبوه
أسرح في بغداد والجزائر وأتوه
ماعجبش من اللي يطيق بجسمه العذاب
وأعجب من اللي يطيق يعذب أخوه
عجبي.."

***

يحصر صلاح نفسه إذن في مجال الهموم الروحية. الإنسان منذ تلبس روحه ببدنه لا ينفك يعاني من أسئلة كثيرة تلح عليه وترهقه فلا يجد لها جواباً رغم توالي الحقب وتقدم العلم وغزو الفضاء، لماذا ومن أين وإلى أين؟ وهب عقلاً قد تتكشف له كل الأسرار إلا سره. فما نفعه؟ كيف نصل إلى معلوم بمجهول. هل الكون صدفة أم له خالق لا نعجز عن تصوره؟ كيف الوصول إليه؟ أناس فطاحل أجلاء انتهوا من جولتهم المضنية ينصحك أن لا وصول للإيمان وأنت مفتح العين إلا بأن تبدأ الرحلة وأنت مؤمن مغمض العينين،

فكيف تكون النهاية هي البداية؟ وكيف يقود العمى إلى الإبصار؟ ما هو هذا الكون وما هي حكمة الوجود وما هي وظيفة الإنسان فيه؟ أمجبول هو على الخير والطهر أم على الشر والنجاسة؟ هل يستطيع بقدرته الصادقة على استبطان أحسن النيّات وعلى الارتماء في أحضان الإيمان والتشوق للخلاص والطهر والخير؟ أن يزحزح ولقد قيد أنملة خط قدره أو سير نظام واحد من أنظمة الكون أم يظل يقرع كل الأبواب، كالشحاذ يسأل المحسن أن يعطيه فرصة أخرى فالعمر قصير والمزالق جمة فلا تلقي له من نافذة ولو بكسرة جافة وتقول له النوافذ المغلقة: حل مشكلتك بنفسك وتحمل عبئك وحدك؟

فصلاح يريد أن يلحق بركب الفلاسفة والمتصوفين. إنه يقف ويدور حول هذه الأسئلة، ولكن دون أن ينفذ إلى لقبها ويستخلص لنفسه جواباً قاطعاً.. فلا مفر لك أن تسأل نفسك بعد أن تفرغ من الرباعيات: "وهل أتى صلاح بشيء جديد؟" وسنرى الإجابة على هذا السؤال فيما بعد.

وقد تنبئ بعض الرباعيات أنها لا تنفي عالم المثل الذي قال به أفلاطون، ولكن صلاح يرى أن هناك فصاماً تاماً واستحالة اتصال بين عالم المثل والوجود الحسي.

"يا قرص شمس ما لهش قبة سما
يا ورد من غير أرض شب ونما
يا أي معنى جميل سمعنا عليه
الخلق ليه عايشين حياة مؤلمة؟
عجبي.."

فأنت ترى أن الشمس موجودة ولكن ليست لها قبة، والورد موجود ولكن ليست له أرض. عالم المثل مليء بالجمال ولكن الوجود الحسي معدنه الألم. لا عجب أن صلاح حين شق طريقه وسط اللهاليب ليصل إلى ينبوع الغرض الأسمى، ينبوع الحواديت، وجد الخنازير والكلاب تشرب منه:

"ينبوع وفي الحواديت أنا سمعت عنه
أنه عجيب.. وفي وسط لهاليب: لكنه
شقيت كما الفرسان طريقي.. لقيت
حتى الخنازير والكلاب شربوا منه
عجبي.."

وقد تفسر هذه الرباعية بأن الفيض الأسمى لا يبخل فيجود حتى على الكلاب والخنازير – كل الأحياء عنده سواء، ولكن نغمة الرباعية تبطن خيبة الأمل. فصلاح لم يصل للينبوع إلا بشق الطريق بجهد، وفي وسط اللهيب فرآه مبذولاً لخنزير لم يبذل جهداً ولكلب لم تسقط للوصول إليه شعره من فروته :

ويقف صلاح من الجمال موقف المتردد، يتشوق إلى درجة التحرق لبلوغ الجمال :

"تسلم يا غصن الخوخ يا عود الحطب
بيجي الربيع تطلع زهورك عجب

وأنا ليه يمضي ربيع وبيجي ربيع
ولسه برضك قلبي حتة خشب
عجبي.."
متشوق للقاء الحبيب لأن الحبيب هو الجمال، أو قل هو وجه الله سبحانه : –
"ليه يا حبيبتي ما بينا دايما سفر
ده البعد ذنب كبير لا يغتفر
ليه يا حبيبتي ما بيننا دايما بحور
أعدي بحر الاقي غيره انحفر
عجبي.."
ثم إذا به فجأة يكفر بهذا الجمال لأن الحياة عبث في عبث.
"نسمة ربيع لكن بتكوي الوشوش
طيور جميلة بس من غير عشوش
قلوب بتخفق.. إنما وحدها
هي الحياة كده كلها في الفاشوش ؟
عجبي.."

***

وصلاح يؤمن أن الأصل في الخلق واحد ولكن المصير هو الذي يتغير. وأول رباعيته في الديوان تقول :
"مع أن كل الخلق من أصل طين
وكلهم بينزلوا مغمضين
بعد الدقائق والشهور والسنين
تلاقي ناس أشرار وناس طيبين
عجبي.."
ويحسن بنا أن نقف عند كلمة "طين" في البيت الأول، فهي قد تنبئ بأن صلاح يعتقد بأن الأصل معدن خسيس يمثل الشر، في قلب كل إنسان مضغة منه :
"يا مشرط الجراح أمانة عليك
وأنت في حشايا تبص من حواليك
فيه نقطة سودة في قلبي بدأت تبان
شيلها كمان.. دا الفضل يرجع إليك
عجبي.."

وإني أحب – كما قلت سابقًا – في رباعيات صلاح أنها تخاطب العميق من وجدان القارئ فهذه الرباعية نفهمها حق الفهم بوجداننا بفضل ما رسب فيه من تلاوة سيرة– الرسول عليه الصلاة والسلام– فقد أنبأتنا أحاديث غير قليلة أن ملكين شقّا قلب الرسول وهو صبي ليستخرجا منه مضغة سوداء. ومخاطبة الوجدان هو مجال هذا الشعر العباسي.

والدنيا كلها عند صلاح غارقة في الشرور ولذلك فلا أمل لها في الوصول إلى بر النجاة:

"نوح راح لحاله والطوفان استمر
مركبنا تايه لسه مش لاقيله بر
آه من الطوفان.. وآهين من بر الأمان
ازاي تبان والدنيا غرقانة شر
عجبي.."

***

والإنسان في هذا الكون لا تزيد قيمته عن صفر.

"إنسان أيا إنسان ما أجهلك
ما أتفهك في الكون وما أضألك
شمس وقمر وسدوم وملايين نجوم
وفاكرها يا موهوم مخلوقة لك
عجبي.."

وهو كذلك معدوم الحرية، عبد لشهواته ولو ذاق منها الأمرين :

"السم في الهواء. منين يضر
والموت ولو لعدونا.. منين يسر
حط القلم في الحبر.. واكتب كمان
والعبد للشهوات.. منين هو حر ؟
عجبي.."

ولعل الإنسان هو الذي جلب على نفسه كل هذه المصايب لأنه يريد أن يخضع الكون لمقاييسه كما نرى في الرباعية التي أولها "إنسان يا إنسان".

***

ويخرج صلاح من هذه الجولة المضنية وهو محنق. تجري على لسانه ألفاظ "طنط وتف" ويخرج أيضًا وهو متشائم. فلو تمثل الجمال المطلق على شيء فمآله أن يفترسه الشر ويتضح أنه وهم.

"كروان جريح مضروب بشعاع من قمر
سقط السموات فؤاده انكسر

جريت عليه قطة عشان تبلعه
أتاريه خيال شعرا ومالوش أثر
عجبي.."

ولكن صلاح يتشبث بخيط واهٍ من الأمل، فالحياة عنده إصرار على الحياة رغم ما يحيط بها من أعباء وشرور، ومع ذلك ينتهي صلاح باعتقاده أنها في نهاية الأمر إنما تبطن شرا، فهو لا يتخلى عن تشاؤمه.

"دخل الشتا وقفل البيبان ع البيوت
وجعل شعاع الشمس خيط عنكبوت
وحاجات كثير بتموت في ليل الشتا
لكن حاجات أكثر بترفض تموت
عجبي.."

ياللي أنت بيتك قش مفروش بريش
يقوى عليه الريح يصبح مفيش
عجبي عليك، حواليك مخالب كبار
ومالكش غير منقار وقادر تعيش
عجبي.."

ثم يسلم صلاح نفسه – لئلا تتحطم – إلى السخرية الوديعة بالإنسان، إنها غير قاسية، بل تنطوي على حنان وحب شديدين. وأكثر سخرية صلاح موجهة للمتعالين المتعنطزين، فلست أعرف في كل الذي قرأت سخرية ألذع من هذه السخرية التي أجدها في الرباعية التالية :

"يا طير يا عالي في السما طظ فيك
ماتفتكرشي ربنا مصطفيك
برضك بتاكل دود وللطين تعود
تمص فيه يا حلو.. ويمص فيك
عجبي.."

هل استقر صلاح واطمأن بعد تجاربه المزلزلة ؟ إن سألته اليوم ما الذي تملك لما أجابك إلا بقوله، لا أملك إلا قلبا مليئا بالمحبة والتسامح إزاء ضعف الإنسان.

"فتحت شباكي لشمس الصباح
ما دخلش منه غير عول الرياح
وفتحت قلبي عشان أبوح بالآلم
ماخرجش منه محبة وسماح
عجبي.."

ولكن بعد هذا كل هل أتى صلاح بشيء جديد؟

***

هيهات أن تجد هذا الرجل في الغرب، أؤكد لك أنني بحثت عنه – لأني أحبه – حين عشت في الغرب فلم أعثر عليه، ذلك أن موطنه هو الشرق موطن الصحراء الممتدة، والسماء الصافية، والنجوم اللامعة المنتشرة، وللكون لحن هو خليط همسها جميعًا، ففي الشرق لقيت هذا الرجل كثيرًا حتى ألفته وجلست إلى جانبه مرارًا فلم يحس بوجودي بل كنت أنا هذا الرجل أحيانا وأنا في الشرق، فلما انتقلت للغرب اشتقت أن أكونه وحاولت فأخفقت، ولو قد نجحت وهزأ الناس من بواخي. إنه الرجل الذي يخلو لنفسه، تحسب أن ليس في مواجهة الطبيعة كلها أحد غيره، ظهره محنٍ وكأنما فوقه أثقال، ورأسه دان إلى القلب كأنما ينصت لوشوشته وقد تكون في يده أحيانا عصى يخط بها على الأرض لغة لم تكتشف أبجديتها بعد ولكنه يظل صامتاً، لا تدري أسارح الذهن في متاهات سحيقة؟ أم هو مستغرق في التفكير، اعترضته فكرة فسلمت فعانقت فحضنت – كما نفعل في الشرق – فاستوعبت فليس منها فكاك؟ وكلما طال الصمت اكتسى وجهه شيئًا فشيئًا بغلالة من الحزن، حزن رفيق غير مفترس، ليس له أنياب تنهش بل راحة يد كالطيف تربت بحنان.. يدل اطمئنان الرجل على أنه يجد لهذا الحزن الرقيق لذة تنتشي بها روحه ويتحلب لها فمه. ثم فجأة يمصمص بشفتيه ويهز رأسه وينطق لنفسه – فلا أحد معه – بكلمة واحدة. هي تارة (دنيا) وتارة (حكم) – جمع حكمة – أين كان؟ ما هي تقدمات هذه الكلمة الواحدة – لا أحد يدري. بل لعله هو نفسه لا يدري، ولو نصب لهذا الرجل تمثال يكون توءم لكان خليقًا أن يكون هو النبي الذي يطوف به في الشرق ركب أهل التصوف والحكم المرسلة.. فكلهم يصدرون أول الأمر عن هذا الاستعبار والشوق الرقيق فإذا خبطهم الوجد تفرقوا كالطير المنطلق من محبس ولكل منهم صيحته المحترقة المجلجلة في الفضاء، ولعل الكروان هو رمزهم حين يسبح ربه هاتفا (الملك) وهو طير موطنه الشرق أيضًا.. وقد لحق صلاح جاهين في رباعياته بهذا الركب.. إنها أيضًا وليدة الخلوة والاستعبار والحزن الرقيق، وضع قلبه على يده ومده إلينا – وهذا هو فيض الكريم – وقال: كلوا من كنوزي.. تذوقوها تجدوها لذيذة ولكننا نقول له: قد أكلنا وشبعنا من هذه الكنوز إلى حد التخمة.. فهو لم يأت بجديد، إنه يجتر تراثه المنتقل إليه مع بقية أملاك الوقف التي أكل الدهر عليها وشرب حتى أصبح جلالها وسط العمارات الشاهقة المبنية بالأسمنت المسلح في عصر الذرة نوعًا من تحشم الشاكرين لربهم على الستر، وأصبح صوت تداعيها البطيء نوعًا من أنين الذكريات – بل إن صلاح اكتفى بتسجيل اهتزازاته المباشرة كأنما يخشى أن يبح صوته من قبل أن ينطق، وهذه الاهتزازات المباشرة يحكم عليها أهل الغرب عادة بأنها فطرية بدائية ساذجة، فهم يطلبون لصاحبها أن يصبر عليها حتى تستقر وتنظمها نظرة واحدة شاملة، تتصف بالعمق والاستيعاب، فلا تكون الطبيعة عندهم – كما هي عند صلاح – فرقا متجمعة، بل وحدة موزعة. فالأثر المتبقي في النفس بعد قراءة الرباعيات أنها خدوش الأظافر في الصخرة الصماء التي هي القدر.

ومما يزيد في الشعور بفطرية هذه الرباعيات التي عامت فوق بحر التصوف دون أن تغرق فيه أن الاهتمامات الأولى لصاحبها – كما تفهم – هي البحث عن حلول مادية لمشكلات روحية. فليقل لنا صلاح على أي جنب يمضغ فكه.

غير أني لا أقول هذا الكلام إلا لأنني أضعه في كفة ترجحها كفة أخرى تجعل من الرباعيات عملا فنيا رائعًا، فلا حد لإعجابي بها وحبي لها، لأن عصارتي هي الدم الذي يجري في عروقي منذ مولدي في المهد الذي نشأ فيه حافظ وجلال الدين ورابعة العدوية ومحيي الدين وابن الفارض.

وأول ما نجده في الكفة الراجحة هو تعبيرها الصادق الظريف الخفيف الدم عن مزاج ابن البلد في مصر – فصلاح ابن بلد مصفي، لم يفسده التعليم أوالتثقيف بل زاده رقة على رقة – حتى جسمه – كما قلت مرة – يشبه بشدق نافخ في مزمار بلدي..

ويخيل إليك أن صلاح أخذ الدن المترب من عمر الخيام وصبه في قلة قناوي وضعها – وفي حلقها فلة أو وردة – على رصيف قهوته التي يشرب فيها التعمير ساعة العصاري ليكرع منها – ولا حاجة للكوب – كل عطشان عابر سبيل.. وهذا ثواب مبجل ومضمون عندنا، ولكنك إذا دققت النظر في تخاريم شباك هذه القلة لوجدتها آية في الصنعة الباهرة والزخرفة الجميلة، شباك أين منه دنتلا البندقية. وقد زهقنا أشد الزهق ممن يكتبون لنا بأساليب لا تمت إلى مزاجنا بأدنى سبب، كأنهم وهم يؤلفون يترجمون عن لغة أقوام آخرين، ذلك لأنهم يكتبون بلغة القواميس لا بلغة قلوبهم ولا يفرقون بين الأسلوب الفني وأسلوب موضوع الإنشاء الذي لابد أن يبدأ بجملة (خلق الله الإنسان). وإذا لم يصل أدبنا إلى التعبير عن مزاج أهله فأنه سيظل – ولله الحمد – كالماء الصافي لا طعم ولا لون ولا رائحة.

ولا تحسبن أن سبب صدق تعبير صلاح عن مزاج ابن البلد راجع إلى أن الرباعيات مكتوبة بالعامية. فالمضمون فيها طغى على الشكل اللغوي حتى محاه ولا أخجل من الاعتراف بأنني لم أكن أحس وأنا أقرأ الرباعيات أنها مكتوبة بالعامية، ذلك أن صلاح قبل أن يكون ابن بلد مصفي هو الفنان المصفي الأصيل المتعدد المواهب، هو الفنان بشخصه وفي ذاته ولو لم يخط حرفا واحداً، فكل ما يصدر عنه هو فيض – فيض الكريم.

ومن أمثال صلاح ينشأ في كل بلد (مجتمع الفنانين) الذين يعادون البورجوازية ويصادقون الأشراف والشحاذين على حد سواء، فهل هو موجود لدينا؟ لقد مر الزمن الذي كان الاتصاف فيه (بالبوهيمية) جواز مرور لقهوة الفن.. إنما بحثنا اليوم هو عن أصحاب الأمزجة الفنية الموهوبين، حتى ولو لم يخطوا حرفا واحداً.. لي صاحب منهم تغنيني جلسة قصيرة معه بما لا تغنيني قراءة ألف كتاب، وربما كففت عن قراءة إنتاج أحد المؤلفين لأنني قابلته فرأيت وأحسست أنه جلف غليظ القفا، حتى لو كتب الروائع، يفتح الله.. فليست المسألة في الرباعيات هي بأي لغة كتبت، بل ماذا قال صاحبها. وأنا واثق أن صلاح لو كتب باللاوندي لفهم القارئ أن المؤلف ابن بلد في مصر.

والميزة الثانية أن صلاح سمح لنفسه أن يحدثنا عن نفسه، عن صفاته وأوهامه ومخاوفه ونوع النكتة التي يحبها، فهو لم يثقل علينا بنظريات مجردة، بل قدم لنا ترجمة ذاتية تنبض بالحياة.

وأستطرد هنا كذلك وأقول إن صلاح بعمله هذا لم يكتف بتقديم النتائج، بل جعلنا نصحبه في كل خطوة يخطوها فكأنه جعلنا نطل على عقله وهو يعمل.. وأغلب المؤلفين عندنا لا يسمحون لنا أن نطل على عقولهم فهم يأتون لنا بالنتيجة النهائية – على بلاطة – كأنما نزلت عليهم من السماء نزول المن والسلوى، فإذا أكلناها وجدناها مفقودة العصارة كأنها مصاص القصب، كأنهم يخشون أن يقال إذا كشفوا سيرهم المتردد المتخبط بأنه نوع من التعري، ومن أوجه هذه الظاهرة أن أدبنا يكاد يكون خلواً من وصف أزمات الضمير، فلا عجب أن كتب شبابنا بأسلوب لا تفرق بينه وبين أسلوب الشيوخ.. وأسلوب صلاح في الرباعيات هو أسلوب صلاح، بل هو صلاح نفسه.

كتب صلاح بالعامية – عامية أنيقة رشيقة ولكنه طعّمها بألفاظ وتراكيب غير قليلة من الفصحى، فصلاح ابن بلد معه (الأنس) بل استعار من الفصحى حركة التنوين ليجعلها نونا ساكنة في قافية إحدى رباعياته.

عجبي عليك، عجبي عليك يا زمن
يا بو البدع يا مبكي عيني دما
ازاي أنا اختار لروحي طريق
وأنا اللي دخل في الحياة مرغما
عجبي..

فجاء هذا النطق وسط العامية تعبيرا صادقًا حلواً عن مزاج ابن البلد حين يتسلطن يقول صلاح في هذه الرباعية (أنا اللي) ويقول في رباعية أخرى (أنا الذي) لأن الذي يقوده ليست هي اللغة بل النغمة.

واللغة العامية مملوء بمطبات كثيرة وجلدها سريع التحول من النعومة إلى الخشونة بحيث يحق لمن يتأملها أن يؤمن بأنها تتأبى أن تنقاد وتدخل في قيود بحور الشعر.. هي لغة في صميمها فوضوية.. خذ مثلاً النفي بحرف الشين الساكنة في ذيل فعل ماض آخر حرف فيه ساكن أيضا لأنه مجزوم بكلمة (ما) الواردة قبله. وأنت تعلم أننا نكره التقاء الساكنين. انظر مثلا هذه الرباعية.

ياما صادفت صحاب وصاحبتهمش
وكاسات خمور وشراب وما اشربتهمش
اندم على الفرص اللي أنا سبتهم
والا على الفرص اللي ماسبتهمش
عجبي.."

انظر كيف تثقل كل قافية على النطق لو أخذت وحدها وبالأخص كلمة (ماسبتهمش) ويكاد الفم وهو ينطقها يتكور كفم القمع ويمتد السكون على حرف السين إلى نوع من وش الصغير ليحل محل الحركة التي يتطلبها التقاء الساكنين.

وقد عرف صلاح كيف يضع على جميع المطبات قناطر يعبر فوقها برشاقة رغم بدانته وحمله الثقيل من كراكيب العامية، حتى رباعية النفي بالشين حين تقرؤها خبطة واحدة تشربها في شيء من السهولة دون أن تقف في الزور – ذلك الذي يقوده هو أذن شديد الحساسية بالنغم ولعل السبب أن قالب الرباعية الأصيل قد استولى عليه وخبطه وعلمه حسن الأدب، إذ ينبغي أن أعترف أن بعض قصائده المطولة التي نشرها في الأهرام بإمضاء (ص.ج) وهي مكتوبة بالعامية تبدو للساني وأذني وحتى لعيني – خالية خلواً تاما من النغم، فلا أعرف هل هي شعر أم نثر؟ إن كانت شعراً فهي أردأ الشعر وأن كانت نثرا فهي أحط النثر، إنها حطام لا كيان. لقد كان قلب الرباعيات بمثابة قيثارة من صنع ستراديفاريوس فأمدت العازف البارع صلاح بما لا يجود به غيرها وبما لا تجود لغيره. كم أتمنى أن يلتقي الشعراء عندنا إلى قالب الرباعيات فلو بعثوه من مرقده لأنقذهم من حيرتهم وجمودهم وفك عنهم أسر القوافي المطولة كذيل ثوب الزفاف في أفرح الأثرياء. يحتاج إلى عشرين صبية لحمله.

والنغمة العامية لها أيضًا جذب شديد لأعلى بل إلى أسفل، إلى الابتذال وقد عرف صلاح كيف يتفادى هذا الابتذال بفضل رقة حسه ومزاجه وكرهه لكل ما هو غث وغليظ وثقيل – كل ما هو عفن وقليل الحياء ولكنك إذا سمحت لأعصابك المخدرة بسحر هذه الرباعيات أن تبرد قليلا فقد يختلط عليك الأمر في بعض الأحيان فتبدو لك اللفتة البارعة كأنها نكتة مبتذلة:

بره القزاز كان غيم وأمطار وبرق
ما يهمنيش – أنا قلت – ولا عندي فرق
غيرت رأيي بعد ساعة زمان
وكنت في الشارع وفي الجزمة خرق
عجبي.."

فلو غيرت كلمة عجبي بكلمة (انزل) لصلحت هذه الرباعية أن تدخل في ريبرتوار شكوكو العظيم.

لم يهدد أحد اللغة الفصحى كما هددها صلاح.

ضع في كيس واحد كل ما كتب بها من أزجال وقصائد وأغان فلن يصعب عليك أن تلقيه في أول كوم زبالة يقابلك في سوق التوفيقية، حتى بيرم التونسي لم يشكل خطرا على الفصحى لأنه اقتصر على المحاكاة والوصف، أما صلاح فقد رفع العامية بعد أن طعمها بالفصحى وثقافة المثقفين – فهي في الحقيقة لغة ثالثة – إلى مقام اللغة التي تستطيع أن تعبر عن الفلسفة شعراً، وهذا خطر عظيم، ومع حبي لهذه الرباعيات أتمنى من صميم قلبي أن تكون عاقراً فنحن في غنى عن هذه البلبلة التي لابد أن تصيب حياتنا الأدبية.

فالإجادة في هذه اللغة الثالثة لن تكون إلا فلتة من الفلتات، فلو استخدمها كل من هب ودب تحول غذاؤنا كله إلى بضاعة دكان التسالي.. لب وفول وحمص وفشار.

ونحن من علمنا بهذا الخطر لا نستطيع أن نتجاهل هذه الرباعيات إلا كنا كالنعامة التي تدفن رأسها في الرمال وهذا هو ردي على الأستاذ الجليل نزيل دمياط الذي أتتلمذ على يديه وأغترف من فضله فقد كتب إلي يقول (لم وفيم هذا العناء كله من أجل هذه الرباعيات المكتوبة بالعامية؟).

يحيى حقي

عطر الأحباب

إليهم .

مع إن كل الخلق من أصل طين

وكلهـــــــــــم بينزلـــــــــــوا مْغَمَّضـــــــــــين

بعـــــــد الـــــــدقايق والشـــــــهور والســـــــنين

تلاقـــــي نـــــاس أشـــــرار ونـــــاس طيبـــــين

عجبي !!

عجبـــــي عليـــــك.. عجبـــــي عليـــــك يـــــا زمـــــن

يـــــا بـــــو البِـــــدَع يـــــا مبكـــــيٍّ عينـــــي دَمًـــــا

إزاي أنـــــــا اختـــــــار لروحـــــــي طريـــــــق

وأنـــــا اللـــــي داخـــــل فـــــي الحيـــــاة مرغمًـــــا

عجبي !!

مـــــرغم عليـــــك يـــــا صُـــــبح مغصـــــوب يـــــا ليـــــل

لادخلتهـــــــا برِجْليَّـــــــا ولا كـــــــانلي ميـــــــل

شـــــايّلني شـــــيّل دخلـــــت انـــــا فـــــي الحيـــــاة

وبكـــــره ح اخـــــراج منهـــــا شـــــايّلني شـــــيل

عجبي !!

ســـــنوات وفايتـــــه عليّـــــا فـــــوج بعـــــد فـــــوج

واحـــــــدة خَـــــــدِتني ابـــــــن والتانيـــــــة زوج

والتالتـــــــة أب خـــــــدتني والرابعـــــــة إيـــــــه

إيـــه يعمـــل الّـــي بيحْدفُـــه مـــوج لمـــوج ؟

عجبي !!

وأنـــا فـــي الظـــلام.. مـــن غيـــر شـــعاع يهتكـــه

أقـــــف مكـــــاني بخـــــوف ولا أتركـــــه

ولمـــا بيجـــي النـــور واشـــوف الـــدروب

أحتـــــار زيـــــادة.. أيهـــــم أسْـــــلكه؟

عجبي !!

نظـــرت فـــي الملكـــوت كتيـــر وانشـــغلت

وبكـــل كِلمـــةْ (ليـــه؟) و (عشـــانيه) ســـألت

أســـأل ســـؤال.. الـــرد يرجـــع ســـؤال

واخـــرج وحيرتـــي أشـــد ممـــا دخلـــت

عجبي !!

خـــرج ابـــن آدم م العَـــدَمْ قلـــت : يـــاه

رج ابـــن آدم للعـــدم قلـــت : يـــاه

تـــراب بيحيـــا.. وحـــيْ بيصـــير تـــراب

الأصـــل هـــوَّ المـــوت والا الحيـــاة ؟

عجبي !!

ضـــريح رخـــام فيـــه الســـعيد انـــدفن

وحُفـــره فيهـــا شـــريد مـــن غيـــر كفـــن

مرِّيـــــت علـــــيهم.. قلـــــت يـــــا للعجـــــب

لاتتـــــين ريحـــــتهم فيهـــــا نفـــــس العَفَـــــن

عجبي !!

يامـــــا صـــــادفت صـــــحاب ومـــــا صَـــــحِبْتهمش

وكاســـــات خمـــــور وشـــــراب ومـــــا شـــــربتهمشْ

أنـــــدم علـــــى الفـــــرص اللـــــي أنـــــا ســـــبتهم

والا علـــــى الفـــــرص اللـــــي ماســـــبتهمش ؟

عجبي !!

والكـــون ده كيـــف موجـــود مـــن غيـــر حـــدود ؟

وفيـــــه عقـــــارب ليـــــه وتعـــــابين ودود ؟

عـــــالِم مجـــــرب فـــــات وقـــــال ســـــلامات

ده يامـــــا فيـــــه ســـــؤالات مـــــن غيـــــر ردود

عجبي !!

غـــــدْر الزمـــــان يـــــا قلبـــــي مـــــالهوش أمـــــان

وحـــــايبجي يـــــوم تحتـــــاج لحبـــــة إيمـــــان

قلبـــــي ارتجـــــف وســـــأَلني.. أَأَمِـــــنْ بإيـــــه ؟

أَأَمـــــن بإيـــــه محتـــــار بقـــــالي زمـــــان ؟

عجبي !!

يـــــا بـــــاب أيـــــا مقفـــــول.. إمتـــــى الـــــدخول ؟

صـــــبرت يامـــــا واللـــــي يصـــــبر ينـــــول

دقيـــت ســـنين.. والـــرد يرجـــع لـــي : مـــينْ ؟

لـــو كنـــت عـــارف مـــين أنـــا.. كنـــت أقـــول

عجبي !!

أنـــا شـــاب لكـــن عمـــري ولا ألـــف عـــام

وحيـــد ولكـــن بـــين ضـــلوعي زحـــام

خـــايف ولكـــن خـــوفي منـــي أنـــا

أخـــرس ولكـــن قلبـــي مليـــان كـــلام

عجبي !!

أحـــب أعـــيش ولـــو أعـــيش فـــي الغابـــات

أصـــحى كمـــا ولـــدتني أمـــي وابـــات

طـــائر.. حُـــوان.. حشـــرة.. بشـــر.. بـــس اعـــيش

محـــلا الحيـــاة.. حتـــى فـــي هيئـــة نبـــات

عجبي !!

سَـــهِّير ليـــالي ويامـــا لقِّيـــت وطُفـــت

ف ليلـــه راجـــع علـــى الظـــلام قمـــت شـــفت

الخـــوف.. كأنـــه كلـــب ســـدّ الطريـــق

وكنـــت عـــاوز أقتلـــه.. بـــس خُفـــت

عجبي !!

كـــان فيـــه زمـــان ســـحلية طـــول فَرْسَـــخين

كهفـــــين عيونهـــــا وخَشْـــــمَها بَـــــرْبخين

ماتـــت.. لكـــن الرعـــب لـــم عمـــره مـــات

مـــع إنـــه فـــات بـــدل التـــاريخ تـــاريخين

عجبي !!

عجَبتنـــي كلمـــة مـــن كـــلام الـــوَرَقْ

النـــور شَـــرَق مـــن بـــين حروفهـــا وبَـــرَقْ

حبّيـــت أشـــيلها ف قلبـــي.. قالـــت حـــرام

ده أنـــا كـــل قلـــب دخلـــت فيـــه اتحـــرَق

عجبي !!

رقبـــة قـــزازه وقلبـــي فيهـــا انحشـــر

شـــربت كـــاس واتنـــين وخـــامس عشـــر

صـــاحبت نـــاس مـــن الخمـــرة ترجـــع وحـــوش

وصـــاحبت نـــاس م الخمـــرة ترجـــع بَشـــر

عجبي !!

كـــل اللـــي فـــي الخمّـــارة صـــابهم جنـــون

صـــبحوا الرجـــال يتبـــادلوا كـــاس المنـــون

وبْـــدمّ ونبيـــت انكتـــب ع الجـــدار

"يـــا ميـــت ندامـــة ع اللـــي قلبـــه حنـــون"

عجبي !!

قـــــالوا الشـــــقيق بِـــــيمُصّ دم الشـــــقيق

والنـــاس مـــا هيَّـــاش نـــاس بحـــق وحقيـــق

قلبـــــي رميتـــــه وجبـــــت غيـــــره حجـــــر

داب الحجـــــر... ورجعـــــت قلبـــــي رَقيـــــق

عجبي !!

يـــــوم قلـــــت آه.. ســـــمعوني قـــــالوا فَسَـــــدْ

ده كـــــان جـــــدع قلبـــــه حديـــــد واتحســـــد

رديـــــت علـــــى اللايمـــــين أنـــــا وقلـــــت.. آه

لـــــو تعرفـــــوا معنـــــى زئيـــــر الأســـــد

عجبي !!

بـــين مـــوت ومـــوت.. بـــين النيـــران والنيـــران

ع الحبـــــل ماشـــــيين الشـــــجاع والجبـــــان

عجبـــــي عَـــــلادي حيـــــاة.. ويـــــا للعجـــــب

إزاي أنـــــا – يـــــاتخين – بقيـــــت بهلـــــوان

عجبي !!

أنـــا قلبـــي كـــان شخشـــيخة أصـــبح جَـــرس

جلجلـــــت بـــــه صِـــــحيُوا الخـــــدم والحـــــرس

أنـــا المهـــرج.. قمتـــو ليـــه خفتـــو ليـــه ؟

لافْ إيـــــدي ســـــيف ولا تحـــــت منـــــي فـــــرس

عجبي !!

دخـــــل الربيـــــع يضـــــحك لقـــــاني حـــــزين

نـــــده الربيـــــع علـــــى اســـــمي لـــــم قلـــــت مـــــين

حـــــــط الربيـــــــع أزهـــــــاره جنبـــــــي وراح

وإيـــــــش تعمـــــــل الأزهـــــــار للمَيتـــــــين

عجبي !!

مهبـــــــوش بخربـــــــوش الألـــــــم والضـــــــياع

قلبـــــــي ومنـــــــزوع م الضـــــــلوع انتـــــــزاع

يـــــا مرايتـــــي يـــــا اللـــــي بترســـــمي ضـــــحكتي

يـــــــا هَلـــــــتٍرى ده وش والا قنـــــــاع

عجبي !!

حبّيـــــت.. لكـــــن حـــــب مـــــن غيـــــر حنـــــان

وصـــــاحبت لكـــــن صُـــــحبة مالهـــــاش أمـــــان

رحـــــت لحكـــــيم واكتـــــر لقيـــــت بلـــــوتي

إن اللـــــي جـــــوّه القلـــــب مـــــش ع اللســـــان

عجبي !!

ليـــــه يـــــا حبيبتـــــي مـــــا بيننـــــا دايمًـــــا ســـــفر

ده البعـــــــد ذنـــــــب كبيـــــــر لا يُغتفـــــــر

ليـــه يـــا حبيبتـــي مـــا بيننـــا دايمًـــا بحـــور

أعـــــدي بحـــــر الاقـــــي غيـــــره اتحفـــــر

عجبي !!

ورا كـــــل شـــــباك ألـــــف عـــــين مفتوحـــــة

وانـــا وانتـــي ماشـــيين يـــا غرامـــي الحـــزين

لـــــو التصـــــقنا نمـــــوت بضـــــربة حجـــــر

ولـــــــو افترقنـــــــا نمـــــــوت مِتحسَّـــــــرين

عجبي !!

نـــــوح راح لحالـــــــه والطوفـــــان اســـــتمر

مركبنـــا تايهـــة لســـة مـــش لاقيـــة بَـــر

آه مـــن الطوفـــان وآهـــين يـــا بـــر الأمـــان

إزاي تبـــــان والـــــدنيا غرقانـــــة شـــــر

عجبي !!

علـــى رجلـــي دم.. نظـــرت لـــه مـــا احتملـــت

علـــى إيـــدي دم.. ســـألت : ليـــه ؟ لـــم وصـــلت

علـــى كتفـــي دم وحتـــى علـــى راســـي دم

أنـــا كُلِّـــي دم.. قلـــت ؟.. والا اتقلـــت ؟

عجبي !!

أنـــا كـــل يـــوم اســـمع.. فـــلان عـــدِّبوه

أســـــرح فـــــي بغـــــداد والجزائـــــر واتـــــوه

مـــا اعجـــبش م اللـــي يطيـــق بجسْـــمه العـــذاب

واعجـــب مـــن اللـــي يطيـــق يعـــذب أخـــوه

عجبي !!

ينبـــوع وفـــي الحواديـــت أنـــا ســـمعت عنـــه

إنـــه عجيـــب.. وف وســـط لهاليـــب لكنُّـــه

شـــقّيت كمـــا الفرســـان طريقـــي.. لقيـــت

حتـــى الخنـــازير والكـــلاب شـــربوا منُّـــه

عجبي !!

يـــا قـــرص شـــمس مـــالهش قبـــة ســـما

يـــا ورد مـــن غيـــر أرض شـــبّ ونمـــا

يـــا أي معنـــى جميـــل ســـمعنا عليـــه

الخلـــق ليـــه عايشـــين حيـــاة مؤلمـــة ؟

عجبي !!

شـــاف الطبيـــب جرحـــي وَصَـــف لـــه الأمـــل

وعطـــاني منـــه مقـــام يـــا دوب مـــا انـــدمل

مجـــروح جديـــد يـــا طبيـــب وجرحـــي لهيـــب

ودواك فـــرغ منـــي.. وإيـــه العمـــل ؟

عجبي !!

أعـــــرف عيـــــون هـــــي الجمـــــال والحســـــن

واعـــــرف عيـــــون تاخـــــد القلـــــوب بالحضـــــن

وعيـــــون مُخيفـــــة وقاســـــية وعيـــــون كتيـــــر

وبـــــــاحس فـــــــيهم كلهـــــــم بـــــــالحزن

عجبي !!

إيـــــش تطلبـــــي يـــــا نفســـــي فـــــوق كـــــلّ ده ؟

حظـــــــك بيضـــــــحك وانتـــــــي متنكـــــــدة

ردت قالـــــت لـــــي الـــــنفس : قـــــول للبشـــــر

مـــــا يبصـــــوليش بعيـــــون حزينـــــة كـــــده

عجبي !!

اقلـــــع غمـــــاك يـــــا تـــــور وارفـــــض تِلِـــــفْ

اكســـــر تـــــروس الســـــاقية واشـــــتم وتِـــــف

قـــــال : بـــــس خطـــــوة كمـــــان.. وخطـــــوة كمـــــان..

يـــــا اوصـــــل نهايـــــة الســـــكة يـــــا البيـــــر يجّـــــف

عجبي !!

يـــــا حـــــزين يـــــا قمقـــــم تحـــــت بحـــــر الضـــــياع

حـــــزين أنـــــا زيـــــك وإيـــــه مســـــتطاع ؟!

الحـــــزن مـــــا بقـــــالهوش جـــــلال يـــــا جـــــدع

الحـــــــــزن زي البـــــــــرد.. زي الصـــــــــداع

عجبي !!

فـــي يـــوم صـــحِيت شـــاعر براحـــة وصـــفا

الهـــــــم زال والحـــــــزن راح واختفـــــــى

خَـــدني العجـــب وســـألت روحـــي ســـؤال

أنـــا مُـــت ؟.. والا وصـــلت للفلســـفة ؟

عجبي !!

الفيلســـــوف قاعـــــد يفكـــــر سِـــــيبوه

لا تعملـــــــوه ســـــــلطان ولا تصـــــــلبوه

مـــا تعرفـــوش إن الفلاســـفة يـــا هـــوه

اللـــــي يقولـــــوه بيرجعـــــوا يكـــــدّبوه ؟

عجبي !!

علـــى بعـــد مليـــون ميـــل مـــن أرضـــنا

مـــن الفـــراغ الكـــوني بصـــيت أنـــا

لا شـــفت فـــرق مـــا بـــين جبـــال أو بحـــور

ولا شـــفت فـــرق مـــا بـــين عـــذاب أو هَنـــا

عجبي !!

إنســـان أيـــا إنســـان مـــا أجهلـــك ؟

مـــا أتفهـــك فـــي الكـــون ومـــا أضـــألك ؟

شـــمس وقمـــر وســـدوم وملايـــين نجـــوم

وفاكرهـــــا يـــــا موهـــــوم مخلوقـــــه لـــــك ؟

عجبي !!

نظـــــرت فـــــوقي للنجـــــوم وانـــــا ســـــاير

رجليـــــا عَتـــــرت فـــــي الحُفَـــــر والحجـــــاير

بقيـــــت أقـــــول وانـــــا ع التـــــراب : يـــــا ســـــلام

مـــــش بـــــس عِبـــــره أخـــــذت لكـــــن عبـــــاير

عجبي !!

-يـــــا نجـــــم.. نـــــورك ليـــــه كـــــده بيرتجـــــف ؟

هـــــوّ انـــــت قنـــــديل زيـــــت ؟.. أو تختلـــــف ؟

-أنـــــا نجـــــم عـــــالي.. بـــــس عـــــالي قـــــوي

وكـــــل مـــــا انظـــــر تحـــــت أخـــــاف انحـــــدف

عجبي !!

الســـــم لـــــو كـــــان فـــــي الـــــدوا.. منـــــين يضـــــر ؟

والمـــــوت.. ولـــــو لعـــــدوّنا.. منـــــين يُســـــرّ ؟

حُـــــط القلـــــم فـــــي الحبـــــر واكتـــــب كمـــــان

.. والعبـــــد للشـــــهوات.. منـــــين هـــــو حُـــــرّ ؟

عجبي !!

وقفـــــت بـــــين شـــــطين علـــــى قنطـــــرة

الكـــــدب فـــــين والصـــــدق فـــــين يـــــا تـــــرى

محتـــار ح امـــوت.. الحـــوت خـــرج لـــي وقـــال

هـــــو الكـــــلام يتقـــــاس بالمســـــطره ؟

عجبي !!

ســـــرداب فـــــي مستشـــــفى الـــــولاده طويـــــل

صـــــرخات عـــــذاب ورا كـــــل بـــــاب وعويـــــل

.. وفـــــي الطريـــــق متـــــزوقين البنـــــات

متـــــــــزوقين للحـــــــــب والمواويـــــــــل

عجبي !!

الـــــــــدنيا أُوده كبيـــــــــره للانتظـــــــــار

فيهـــــا ابـــــن آدم زيُّـــــه زي الحمـــــار

الهـــــم واحـــــد.. والمَلَـــــلْ مشـــــترك

ومفـــــيش حمـــــار بيحـــــاول الانتحـــــار

عجبي !!

أيـــــوب رمـــــاه البـــــين بكـــــل العلـــــل

ســـــبع ســـــنين مرضـــــان وعنـــــده شـــــلل

الصـــــبر طيـــــب.. صـــــبر أيـــــوب شـــــفاه

بـــــس الأكـــــاده مـــــات بفعـــــل المَلَـــــل

عجبي !!

نســـــمة ربيـــــع لكـــــن بتكـــــوي الوشـــــوش

طيـــور جميلـــة بـــس مـــن غيـــر عشـــوش

قلـــــــوب بتخفـــــــق.. إنمـــــــا وحـــــــدها

هـــي الحيـــاه كـــده.. كلهـــا فـــي الفاشـــوش

عجبي !!

يـــا طيـــر يـــا عـــالي فـــي الســـماء طُـــظ فيـــك

مـــــــا تفتكرشـــــــي ربنـــــــا مُصـــــــطَفيك

برضـــــــك بتاكـــــــل دود وللطـــــــين تعـــــــود

تمـــص فيـــه يـــا حلـــو.. ويمـــص فيـــك

عجبي !!

كـــروان جـــريح مضـــروب شـــعاع م القمـــر

ســـقط مـــن الســـموات فـــؤاده انكســـر

جِرِيـــتْ عليـــه قطـــه عشـــان تبلعـــه

أَتاريـــه خيـــال شـــعراء ومـــالهوش أثـــر

عجبي !!

يـــاللي نصـــحت النـــاس بشـــرب النبيـــت

مـــع بنـــت حلـــوه.. وعـــود، وضـــحك، وحـــديت

مـــش كنـــت تنصـــحهم منـــين يكســـبوا

تَمـــن ده كلـــه ؟.. والا يمكـــن نســـيت

عجبي !!

مـــا حـــد فـــي الـــدنيا دي واخـــد جزاتـــه

ولا حـــد بيفكـــر فـــي غيـــر لذاتـــه

مـــاتعرفيش يـــا حبيبتـــي.. أنـــا وانتـــي مـــين ؟

انتـــي عـــروس النيـــل.. وأنـــا النيـــل بذاتـــه

عجبي !!

رقاصـــه خرســـا ورقصـــه مـــن غيـــر نغـــم

دنيـــا.. يـــا مـــين يصـــالحها قبـــل النـــدم

ســـــاعْتِن تهـــــز بوجههـــــا يعنـــــي لا

يترجرجـــــوا نهـــــديها يعنـــــي نعـــــم

عجبي !!

اخطفنـــــي يـــــاللي تحبنـــــي ع الحصـــــان

الـــدنيا قالـــت يـــوم فـــي مـــاض الزمـــان

اخطفنـــــي يـــــاللي تحبنـــــي ع الفـــــرس

الـــدنيا قالـــت.. قـــام خطفهـــا الشـــيطان

عجبي !!

مـــن بـــين شـــقوق الشـــيش وشقشـــقْت لـــك

مـــع شـــهقة العصـــافير وزقزقْـــت لـــك

نهـــار جديـــد أنـــا.. قـــوم نشـــوف نعمليـــه

أنـــا قلـــت يـــا ح تقتلنـــي.. يـــا ح اقتلـــك

عجبي !!

قلبـــي عليـــل يـــا نـــاس وفـــي الكـــاس دواه

مـــدِّيت لـــه إيـــدي شـــرِبت م اللـــي حَـــواه

جنبـــي الشـــمال خـــف.. اليمـــين اتوجـــع

وإيـــه يـــداوي الكِبْـــد م اللـــي كـــواه

عجبي !!

.. دي مـــذكرات وكتبتهـــا مـــن ســـنين

فـــي نوتـــه زرقـــا لـــون بحـــور الحنـــين

عتـــرْت فيهـــا.. رميتهـــا فـــي المهمـــلات

وقلـــت أمـــا صـــحيح كـــلام مخبـــولين

عجبي !!

دخـــل الشـــتا وقَفَـــل البيبـــان ع البيـــوت

وجعـــل شـــعاع الشـــمس خـــيط عنكبـــوت

وحاجـــات كتيـــر بتمـــوت فـــي ليـــل الشـــتا

لكـــن حاجـــات أكتـــر بتـــرفض تمـــوت

عجبي !!

– الـــدنيا مـــن غيـــر الربيـــع ميّتـــه

ورقـــة شـــجر ضـــعفانه ومفتقتـــه

– لأ يـــا جـــدع غلطـــان تأمّـــل وشـــوف

زهـــر الشـــتا طـــالع فـــي عـــز الشـــتا

عجبي !!

يـــا للـــي انـــت بيتـــك قـــش مفـــروش بـــريش

تقـــوى عليـــه الـــريح.. يصـــبح مفـــيش

عجبـــي عليـــك حواليـــك مخالـــب كبـــار

ومـــالكش غيـــر منقـــار وقـــادر تعـــيش

عجبي !!

ســـمعت نقطـــة مَيّـــه جُـــوّه المحـــيط

بتقـــول لنقطـــه مـــاتتزليش فـــي الغـــويط

أخـــاف عليكـــي م الغـــرق.. قلـــت أنـــا

ده اللـــي يخـــاف م الـــودع يبقـــى عبـــيط

عجبي !!

جالـــك أوان ووقفـــت موقـــف وجـــود

يـــا تجـــود بِـــدَه يـــا قلبـــي يـــا بْـــده تجـــود

مـــا حـــد يقـــدر يبقـــى علـــى كـــل شـــيء

مـــع إن – عجبـــي – كـــل شـــيء موجـــود

عجبي !!

جالـــك أوان وعرفـــت مشـــي الجنـــايز

كيـــف شُـــفتها يـــا عبـــد رب اللذايـــذ

قـــال : شـــفت شـــيل بالحيـــل فقيـــر أو أميـــر

كمـــا شـــالوا فـــي الخمـــامير فواضـــي القزايـــز

عجبي !!

أنـــا كنـــت شـــيء وصـــبحت شـــيء ثـــم شـــيء

شـــوف ربنـــا.. قـــادر علـــى كـــل شـــيء

هَـــزِّ الشـــجر شواشـــيه ووشوشـــني قـــال :

لابـــد مـــا يمـــوت شـــيء عشـــان يحيـــا شـــيء

عجبي !!

يـــا مشـــرط الجـــرّاح أمانـــة عليـــك

وانـــت فْ حشـــايا تـــبص مـــن حواليـــك

فيـــه نقطـــه ســـوده فـــي قلبـــي بـــدأت تبـــان

شـــيلها كمـــان.. والفضـــل يرجـــع إليـــك

عجبي !!

كيـــف شـــفت قلبـــي والنبـــي يـــا طبيـــب

هَمَـــد ومـــات والا ســـامع لـــه دبيـــب

قـــاللي ؟ لقيتـــه مختنـــق بالـــدموع

ومـــا لـــوش دوا غيـــر لمســـه مـــن إيـــد حبيـــب

عجبي !!

تســـلم يـــا غصـــن الخـــوخ يـــا عـــود الحطـــب

بيجـــــي الربيـــــع.. تطلـــــع زهـــــورك عجـــــب

وانـــــا ليـــــه بيمضـــــي ربيـــــع وبيجـــــي ربيـــــع

ولســـــــه برضـــــــك قلبـــــي حتـــــة خشـــــب

عجبي !!

بحـــــر الحيـــــاه مليـــــان بغرقـــــى الحيـــــاه

صَـــــرَخْت خَـــش المـــوج فـــي حلقـــي مـــلاه

قـــارب نجـــاه !.. صَـــــرَخْت قـــالوا مفـــيش

غيـــر بـــس هـــو الحُـــب قـــارب نجـــاه

عجبي !!

فـــارس وحيـــد جـــوَّه الـــدروع والحديـــد

رفـــرف عليـــه عصـــفور وقـــال لـــه نشـــيد

منـــين منـــين.. ولفـــين لفـــين يـــا جـــدع ؟

قـــال مـــن بعيـــد ولســـــه رايـــح بعيـــد

عجبي !!

كـــان فـــي قمـــر كأنـــه فـــرخ الحمـــام

علـــى صـــغره دق شـــعاع شـــق الغمـــام

أنـــا كنـــت حاضـــر قلـــت لـــه ينصـــرك

إشـــحال لمـــا ح تبقـــى بـــدر التمـــام

عجبي !!

النهـــــــد زي الفهـــــــد نـــــــط انـــــــدلع

قلبـــــي انهـــــبش بـــــين الضـــــلوع وانخلـــــع

يـــــــاللي نهيـــــت البنـــــت عـــــن فعلهـــــا

قـــــول للطبيعـــــة كمـــــان تبطـــــل دلـــــع

عجبي !!

صـــــوتك يـــــا بنـــــت الإيـــــه كأنـــــه بـــــدن

يـــــرقص يـــــزيح الهـــــم يمحـــــي الشـــــجن

يـــــا حلـــــوتي وبـــــدنك كأنـــــه كـــــلام

كـــــلام فلاســـــفه ســـــكروا نســـــيوا الـــــزمن

عجبي !!

كربـــــاج ســـــعاده وقلبـــــي منـــــه انجلـــــد

رَمَـــــح كأنـــــه حصـــــان ولَـــــفّ البلـــــد

ورجـــــع لـــــي نُـــــصِّ الليـــــل وســـــألني.. ليـــــه

خجـــــلان تقـــــول إنـــــك ســـــعيد يـــــا ولـــــد

عجبي !!

مزِّيكـــــه هاديـــــه الكـــــون فيهـــــا انغمـــــر

وصـــــيف وليـــــل وعُقـــــد فـــــل وسَـــــمَرْ

يـــــا هَلْتـــــري النـــــاس كلهـــــم مبســـــوطين ؟

ويـــــا هَلْتـــــري شـــــايفين جمـــــال القمـــــر ؟

عجبي !!

إنشـــــد يـــــا قلبـــــي غنوتـــــك للجمـــــال

وارقـــص فـــي صـــدري مـــن اليمـــين للشـــمال

مـــا هـــوش بعيـــد تفضـــل لبكـــره ســـعيد

ده كـــل يـــوم فيـــه ألـــف ألـــف احتمـــال

عجبي !!

آه لـــو أنـــا ومحبـــوبي جُزنـــا الفضـــا

فـــي ســـفينة وحـــدينا.. وأشـــيا رضـــا

ســـاعة صـــفا تعجبنـــا نرجـــع لهـــا

والهـــم قبـــل مـــا بيجـــي.. يبقـــى مضـــى

عجبي !!

أنـــــا إلـــــه الوجـــــد رب الهيـــــام

أضـــرب بســـهم الـــوهم وَهْـــم الغـــرام

وَهْـــم الغـــرام مـــن كُتْـــر مـــا هـــو لذيـــذ

رَشَـــقْت أنـــا ف صـــدري جميـــع الســـهام

عجبي !!

حدوتـــه عـــن جعـــران وعـــن خُنفســـه

اتقـــابلوا حَبُّـــوا بعـــض ســـاعة مِسَـــا

ولا قـــال لهـــم حـــد اختشـــوا عيـــب حـــرام

ولا حـــــد قـــــال دي علاقـــــة متدنســـــه

عجبي !!

يـــــاللي عرفـــــت الحـــــب يـــــوم وانطـــــوى

حِسَّـــــك تقـــــول مشـــــتاق لنبـــــع الهـــــوى

حِسّـــــك تقـــــول مشـــــتاق لنبـــــع الغـــــرام

ده الحـــــب.. مـــــين داق منـــــه قطـــــره.. ارتـــــوى

عجبي !!

زحـــــام وأبـــــواق ســـــيارات مزعجـــــة

اللـــــي يطـــــول لـــــه رصـــــيف.. يبقـــــى نجـــــا

لـــــو كنـــــت جنبـــــي يـــــا حبيبـــــي أنـــــا

مـــــش كنـــــت اشـــــوف إن الحيـــــاة مُبهجـــــة ؟

عجبي !!

إيـــــديا فـــــي جيـــــوبي وقلبـــــي طِـــــرِب

ســـــارح فـــــي غربـــــة بـــــس مـــــش مِغتـــــرِب

وحـــــدي لكـــــين وَنْســـــان وماشـــــي كـــــده

وبابتعـــــد.. مـــــا اعـــــرفش.. أو بـــــاقترب

عجبي !!

يـــــا ميـــــت ندامـــــه ع القلـــــوب الخـــــلا

لا محبـــــــة فيهـــــــا ولا كراهـــــــه ولا

حتـــى يـــا قلبـــي الحـــزن مـــا عـــادش فيـــك

معلهـــش... لـــك يـــوم برضـــه راح تـــتملا

عجبي !!

مرحـــبْ ربيـــع مرحـــب ربيـــع مرحبـــهْ

يـــا طفـــل يـــا للـــي ف دمـــي ناغـــا وْحَبَـــا

علشـــان عيونـــك يـــا صـــغَّنن هويـــت

حتـــى ديـــدان الأرض والأغربـــه

عجبي !!

فتحـــت شـــباكي لشـــمس الصـــباح

مـــا دخلـــش منـــه غيـــر عويـــل الريـــاح

وفتحـــت قلبـــي عشـــان أبـــوح بـــالألم

مـــا خـــرجش منـــه. غيـــر محبـــه وســـماح

عجبي !!

غمســـت ســـنبك فـــي الســـواد يـــا قلـــم

علشـــان مـــا تكتـــب شـــعر يقطـــر ألـــم

مالـــك جرالـــك إيـــه يـــا مجنـــون... وليـــه

رســـمت وردة وبيـــت وقلـــب وعَلَـــم

عجبي !!

أنـــا الـــذي عمـــري اشـــتياق فـــي اشـــتياق

وقطْـــــر داخـــــل فـــــي محطـــــة فـــــراق

قصـــــدت نبـــــع الســـــم وشـــــربت ســـــم

مـــن كُتْـــر شـــوقي وعشـــمي فـــي الترياـــاق

عجبي !!

أنـــــا الـــــذي عشـــــت الـــــزمن مَضْـــــيَعة

بـــــــروح حزينـــــــة معفّنـــــــة مضعضـــــــعه

زرعـــــت شـــــجرة ســـــنط لجـــــل انجـــــرح

لقيتهـــــــا شَـــــــعر البنـــــــت ومفرَعـــــــة

عجبي !!

لـــو فيـــه ســـلام فـــي الأرض وطمـــان وأمـــن

لـــو كـــان مفـــيش ولا فقـــر ولا خـــوف وجـــبن

لـــو يملـــك الإنســـان مصـــير كـــل شـــيء

أنـــا كنـــت أجيـــب للـــدنيا ميـــت ألـــف ابـــن

عجبي !!

العُشـــــــب طاطـــــــا للنســـــــايم ونـــــــحَّ

أخضـــــر طـــــري مـــــالهش فـــــي الحُســـــن أخ

عصـــفور عبـــيط أنـــا.. غـــاوي بهجـــة وغنـــا

ح انـــــزل هنـــــا.. وانشـــــا لله يهبرنـــــي فـــــخ

عجبي !!

أوصـــــيك يـــــا ابنـــــي بـــــالقمر والزهـــــور

أوصـــــيك بليـــــل القـــــاهرة والمســـــحور

إن جيـــت فـــي بالـــك.. اشـــتري عُقـــد فُـــل

لأي ســـــمرا... وقبـــــري إوعـــــك تـــــزور

عجبي !!

غمـــــض عينيـــــك وارقـــــص بخفـــــة ولـــــع

الـــــدنيا هـــــيّ الشـــــابة وانـــــت الجـــــدع

تشـــــوف رشـــــاقة خطوتـــــك تعبـــــدك

لكـــن انـــت لـــو بصـــيت لرجليـــك.. تقـــع

عجبي !!

حاســـب مـــن الأحـــزان وحاســـب لهـــا

حاســـب علـــى رقابيـــك مـــن حبلهـــا

راح تنتهـــــي ولابـــــد راح تنتهـــــي

مـــش انتهـــت أحـــزان مـــن قبلهـــا ؟

عجبي !!

يأســـك وصـــبرك بـــين إيـــديك وانـــت حـــر

تيـــأس مـــا تيـــأس الحيـــاه راح تُمـــر

أنـــا دقـــت مِنْـــدا ومِنْـــدا عجبـــي لقيـــت

الصـــبر مُـــرّ وبرضـــك اليـــأس مُـــرّ

عجبي !!

ولـــــدي نصـــــحتك لمـــــا صـــــوتي اتنَـــــبَح

مـــــا تخـــــافش مـــــن جِنِّـــــي ولا مـــــن شَـــــبَح

وإن هـــــبّ فيـــــك عفريـــــت قتيـــــل اســـــأله

مـــا دافعـــش ليـــه عـــن نفســـه يـــوم مـــا انـــدبح ؟

عجبي !!

ولـــــدي إليـــــك بـــــدل البـــــالون ميـــــت بـــــالون

انفـــــخ وطرقـــــع فيـــــه علـــــى كـــــل لـــــون

عســـــاك تشـــــوف بعينيـــــك مصـــــير الرجـــــال

المنفـــــــوخين فـــــــي الســـــــترة والبنطلـــــــون

عجبي !!

خُـــــوض معركتهـــــا زي جـــــدّك مـــــا خـــــاض

صـــــــالب وقالـــــــب شـــــــفتك بامتعـــــــاض

هـــــيّ كـــــده.. مـــــا تنـــــولش منهـــــا الأمـــــل

غيـــــر بعـــــد صَـــــدّ وَرَدّ ووجـــــاع مخـــــاض

عجبي !!

كـــام اشـــتغلت يـــا نيـــل فـــي نحـــت الصـــخور

مليـــــون بئونـــــه وألـــــف مليـــــون هـــــاتور

يـــا نيـــل أنـــا ابـــن حـــلال ومـــن خلفتـــك

وليـــــه صـــــعيبه علـــــيّ بـــــس الأمـــــور

عجبي !!

منـــــــين أجيبهـــــــا كلمـــــــة متألمـــــــة

لِعَبيّـــــــة فـــــــايره حـــــــايره ومصـــــــممة

منـــــين أجيـــــب كلمـــــة تكـــــون بنـــــت أرض

تشـــفي اللـــي مـــا شـــفاهوش كـــلام الســـما ؟

عجبي !!

أنـــا قلـــت كلمـــة وكـــان لهـــا معينـــين

كمـــا بطـــن واحـــده وتـــوءمين زيـــن وشـــين

لـــو دنيـــا شـــر.. التـــوءم الخيـــر يمـــوت

لـــو دنيـــا خيـــر.. الشـــرح يعـــيش منـــين ؟

عجبي !!

بـــرّه القـــزاز كـــان غـــيم وأمطـــار وبـــرق

مـــا يهمنـــيش – أنـــا قلـــت – ولا عنـــدي فـــرق

غيّـــــرت رأيـــــي بعـــــد ســـــاعة زمـــــان

وكنـــت فـــي الشـــارع... وفـــي الجزمـــة خـــرق

عجبي !!

عينـــــي رأت مولـــــود علـــــى كتـــــف أُمـــــه

يصـــــرُخ تهـــــنّن فيـــــه يصـــــرخ تضـــــمُّه

يصـــرخ تقـــول : يـــا بنـــي مـــا تنطـــق كـــلام

ده اللـــــي مـــــا يـــــتكلمش يـــــا كُتْـــــر همُّـــــه

عجبي !!

يـــــا عنـــــدليب ماتخـــــافش مـــــن غنوتـــــك

قـــــول شـــــكوتك واحكـــــي علـــــى بلوتـــــك

الغنـــــــوه مـــــــش ح تموِّتـــــــك إنمـــــــا

كـــــتم الغنـــــا هـــــو اللـــــي ح يموتـــــك

عجبي !!

يـــــا للـــــي بتبحـــــث عـــــن إلـــــه تعبـــــده

بحـــــث الغريـــــق عـــــن أي شـــــيء ينجـــــده

الله جميـــــل وعلـــــيم ورحمـــــن رحـــــيم

احمـــــل صـــــفاته... وانـــــت راح توجـــــده

عجبي !!

حقـــــرا وفـــــوق كوكـــــب حقيـــــر محتقـــــر

فـــي الكـــون تكـــون دنيـــاكو إيـــه يـــا بَقَـــر

رملايـــه مـــن صـــحرا ؟.. لكـــين إيـــش تقـــول

والكـــــون بحالـــــه جـــــوّه عقـــــل البشـــــر

عجبي !!

لا تجبـــــــــر الإنســـــــــان ولا تخيـــــــــره

يكفيـــــه مـــــا فيـــــه مـــــن عقـــــل بيحيَّـــــره

اللـــــــــي النهـــــــارده بيطلبـــــــه ويشـــــــتهيه

هـــــو اللـــــــي بكـــــره ح يشـــــتهي يغيّـــــره

عجبي !!

يـــــا للـــــي ف حمـــــاه الشـــــمس تلقـــــي المـــــلاذ

وألـــــف بكـــــره وبكـــــره.. وفـــــي ضـــــلوعه لاذ

مـــــين انـــــت ؟ مـــــارد ؟ رب ؟ قـــــال لأ ده بـــــس

انـــــا اللـــــي بـــــاروي القمـــــح واســـــقي الفـــــولاذ

عجبي !!

غَسَـــــل المســـــيح قـــــدمك يـــــا حـــــافي القـــــدم

طـــــوبى لمـــــن كـــــانوا عشـــــانك خَـــــدَم

صـــــنعت لـــــك نعليـــــك أنـــــا يـــــا أخـــــي

مســـــتني إيـــــه.. مـــــا تقـــــوم تـــــدوس العَـــــدَم

عجبي !!

الـــــبط شـــــال عـــــدَّى الجبـــــال والبحـــــور

يامـــــا نفســـــي اهـــــجّ... أحـــــج ويـــــا الطيـــــور

أوْصـــــيك يـــــا ربـــــي لمـــــا أمـــــوت.. والنبـــــي

مـــــا تـــــودّنيش الجنـــــة... للجنـــــة ســـــور

عجبي !!

طـــــــال انتظـــــــاري للربيـــــــع يرجـــــــع

والجـــــــو يـــــــدفا والزهـــــــور تطلـــــــع

عـــــاد الربيـــــع عـــــارم عرمـــــرم شـــــباب

إيـــــه اللـــــي خلانـــــي ابتـــــديت افـــــزع ؟

عجبي !!

ولـــــو انضـــــنيت وفنيـــــت وعمـــــري انفـــــرط

مـــــش عـــــاوز الجـــــأ للحلـــــول الوســـــط

وكمـــــان شـــــطط وجنـــــون مـــــانيش عـــــاوز

يـــــامين يقـــــول لـــــي الصـــــح فـــــين والغلـــــط ؟

عجبي !!

عـــــاد الربيـــــع كأنـــــه طعـــــم الحـــــب

والحـــــب نـــــار جـــــوه العـــــروق بتصـــــب

اتمتـــــــع ازاي بيـــــــه وأنـــــــا متقطـــــــع

مـــــن كُتْـــــر خـــــوفي لا فـــــي الخطيئـــــة يطـــــب ؟

عجبي !!

ازاي شـــــــــابنا يقـــــــــوم وياخـــــــــد دوره

مـــــن غيـــــر صـــــراخ يئذيـــــه ويجـــــرح زوره

يـــــا هـــــلَ ْتَري أحســـــن لـــــه يقعـــــد ســـــاكت ؟

أو ينتـــــرك ولـــــو خـــــرج عـــــن طـــــوره؟

عجبي !!

عينـــــــي رأت عصـــــــفور وويـــــــاه ابنـــــــه

بيحدفـــــه فـــــي الـــــريح وياخـــــده ف حضـــــنه

نـــــوبتين وتالـــــت نوبـــــه – عجبـــــي علـــــيهم –

كـــــــانوا ســـــــوا بيرفرفـــــــوا ويغنـــــــوا

عجبي !!

أحســـــن مـــــا فيهـــــا العشـــــق والمعشـــــقة

وشـــــــــويتين الضـــــــــحك والتريقـــــــــة

شـــــفت الحيـــــاة، لفيـــــت، لقيـــــت الألـــــذ

تغييرهـــــا، وده يعنـــــي التعـــــب والشـــــقا

عجبي !!

عجبـــــي علـــــى العجـــــب العجيـــــب العجـــــاب

لمـــــا الحقيقـــــة تطـــــل بعـــــد احتجـــــاب

وتـــــروق وتحـــــلا وفجـــــأة تصـــــبح مفـــــيش

كمثـــــل طـــــراطيش بحـــــر يامـــــا خـــــد وجـــــاب

عجبي !!

فـــــي الهـــــوّ ماشـــــي يـــــا بهلـــــوان إش إش

يـــــا فراشـــــة منقوشـــــة علـــــى كـــــل وش

شـــــــقلبت عقلـــــــي وعقلـــــــي شـــــــقلبني

وكنـــــت باحســـــبني بقيـــــت مـــــا انـــــدهشّ

عجبي !!

وقفـــــت ســـــاعة الصـــــبح باغســـــل ســـــناني

قالـــــت لـــــي شـــــايف قـــــوتي ولمعـــــاني ؟

إيـــش تطلـــب اليـــوم منـــي ضـــحكة أســـد ؟

والا ابتســـــــامة إعلانـــــــات أمريكـــــــاني ؟

عجبي !!

الحلـــــو يـــــمّ الـــــيمّ صـــــابح رايـــــح

ســـارح فـــي حضـــن الميـــه ســـابح ســـايح

الحلـــو داب فـــي البحـــر. قلـــت ادوقـــه

وجـــدت لســـه البحـــر برضـــك مـــالح

عجبي !!

يـــا كـــل كلمـــة للعجـــب فـــي قـــاموس

انســـــكلوبيديا لســـــان عـــــرب أو لاروس

تعـــالوا نجـــدة. ده لســـه فـــي عصـــرنا

الشـــمس والبحـــر العـــريض بـــالفلوس

عجبي !!

المـــوج تلـــول تهـــبط وتطلـــع تلـــول

يـــا بحـــر خـــدني الشـــط صـــاحبك ملـــول

والا بـــــلاش الشـــــط ح اعمـــــل بـــــه إيـــــه

ده ريحتـــــــه طحلـــــــب مهـــــــري وام الخلـــــــول

عجبي !!

عينـــــي رأت مخلـــــوق فـــــي غايـــــة البشـــــاعة

أنـــــا قلـــــت لـــــه لمـــــا تأملتـــــه ســـــاعة :

اللـــــــذة والمـــــــوت علمـــــــوك الـــــــلَّزج

وأنـــــــا علمـــــــوني الفلســـــــفة والشـــــــجاعة

عجبي !!

غطـــــس وقـــــب المـــــوج نهـــــود بمبـــــي

مـــــن ألـــــف جيـــــل جمـــــالات مـــــا تعلـــــم بـــــي

يـــــا قلبـــــي عيـــــب دول أمهاتنـــــا القـــــدام

اســـــــــــتغفر الله العظـــــــــــيم ربـــــــــــي

عجبي !!

علقـــــت فـــــي المســـــمار قنـــــاع مهزلـــــة

ومعـــــاه قنـــــاع مسأســـــاة بحزنـــــه ابـــــتلا

بصِّـــــــيت لقيـــــــتهم يشـــــــبهوا بعضـــــــهم

واهـــــو ده العجـــــب يـــــا ولاد.. وإلا فـــــلا

عجبي !!

ظهـــــر المســـــيح الحـــــي علـــــى ســـــفح ربـــــوة

ونـــــزل بهالـــــة الضـــــيّ وقعـــــد فـــــي قهـــــوة

بُصُـــــوا. تعـــــالوا. قـــــالوا ؟ خليـــــه فـــــي حالـــــه

النـــــاس فـــــي حـــــالهم يـــــا بنـــــي. مـــــالهمش دعـــــوة

عجبي !!

لـــــــولا اخـــــــتلاف الـــــــرأي يـــــــا محتـــــــرم

لـــــــولا الـــــــزَلَطتين مـــــــا لوقـــــــود انضـــــــرم

ولـــــــولا فـــــــرعين ليـــــــف ســـــــوا مخـــــــاليف

كـــــان بيننـــــا حَبْـــــل الـــــود كيـــــف اتبـــــرم ؟

عجبي !!

يـــــا وردة قلبـــــي معـــــاكي فـــــي الـــــريح لعـــــب

لا تعبْتِـــــــي م الـــــــريح ولا قلبـــــــي تعـــــــب

احنـــــا كـــــده : نرتـــــاح فـــــي صـــــخب الجنـــــون

وفـــــي الســـــكون بنخـــــاف قـــــوي ونتْرعـــــب

عجبي !!

مـــــا آنتـــــاش بتلعـــــب ليـــــه يـــــا روح بابـــــا ؟

ولاّ عســـــكري ولاّ لـــــص فـــــي عصـــــابة ؟

إلعـــــب أســـــد أو ديـــــب رهيـــــب أو غـــــزال

دي الـــــدنيا فـــــي نهايـــــة المطـــــاف غابـــــة

عجبي !!

ورد فـــي ورق ســـلوفان يـــا حلـــوة أهـــديلك ؟

والا انقلـــه بـــالطين فـــي شـــتلة واجيلـــك ؟

الأولانـــــي لـــــو وحـــــا بحنـــــاني

عجبـــي علـــى التـــاني بإيـــه يوحيلـــك ؟

عجبي !!

أنـــا قلبـــي كوكـــب وانطلـــق فـــي المـــدار

حـــواليكي يـــا محبـــوبتي يـــا نـــور ونـــار

يلـــــف مهمـــــا يلـــــف مـــــابيكتفيش

وِتملّـــي نصـــه ليـــل ونصـــه نهـــار

عجبي !!

الأرض شـــوك أيـــوه لكـــين هـــايش

والحُمـــرة مـــش يعنـــي الطريـــق حـــايش

دي منـــا الســـيال. وبُشـــرة خيـــر

إن انتـــي عايشـــة. وإن أنـــا عـــايش

عجبي !!

إيـــه اللـــي خدتـــه مـــن مـــرور الســـنين

يـــا قلبـــي إلا دمعتـــك والأنـــين

بتـــئن وبتفـــرح وترجـــع تحـــن

مـــــع إن مـــــش كـــــل البشـــــر فرحـــــانين

عجبي !!

أوقـــــات افـــــوق ويحـــــل عنـــــي غبايـــــا

واشـــــعر كـــــأني فهمـــــت كـــــل الخبايـــــا

وافـــــتح شـــــفايفي عشـــــان أقـــــول الـــــدرر

مـــا أقـــولش غيـــر حبـــة غـــزل فـــي الصـــبايا

عجبي !!

مركـــــــب ورق مـــــــن نفخـــــــة تتطـــــــوَّح

ركبتهـــــــــا والكـــــــــل بيلـــــــــوَّح

ســـــوّحت فيهـــــا اتنـــــين وخمســـــين ســـــنة

لـــــــــلآن. ولا بتغـــــــــرق ولا تـــــــــروَّح

عجبي !!

ع الجســـــر فُـــــتّ الصـــــبح تحـــــت الضـــــباب

بـــــين اللـــــي لســـــه بينغـــــرس واللـــــي طـــــاب

مـــــا اهتـــــز قلبـــــي لنبـــــت طـــــالع جديـــــد

قـــــد اللـــــي ماشـــــي. وتحـــــت باطـــــه الكتـــــاب

عجبي !!

يـــــا خـــــالق الكـــــون بالحســـــاب والجبـــــر

وخـــــالقني ماشـــــي بلختيـــــار والجبـــــر

كـــــل اللـــــي حيلتـــــي زمزميـــــة أمـــــل

وازاي تكفينـــــــــي لبـــــــــاب القبـــــــــر ؟

عجبي !!

قاعـــــدة قنـــــاني الخمـــــر ســـــاكتة وســـــاهية

مـــــع ابـــــن آدم فـــــي الشـــــبه مُتناهيـــــة

مفـــيش كـــده رَوَقـــان فـــي لحظـــه تشـــوفهم

وبعـــــدها بلحظـــــه يـــــودوا ف داهيـــــة

عجبي !!

حتـــة محـــارة وجـــدتها فـــي يـــوم لقيـــةّ

قالـــت لـــي شـــوف كيـــف الطبيعـــة شـــقية ؟

نظـــرت للكهـــف اللـــي فيهـــا ولقيـــت

إن الطبيعـــــــة كمـــــــان.. لا أخلاقيـــــــة

عجبي !!

بلياتشـــو قـــال إيـــه بـــس فايـــدة فنُـــوني ؟

وتـــــلات وقـــــق مســـــاحيق بيلونـــــوني

والطبـــــل والزمـــــامير وكتـــــر الجعيـــــر

إذا كـــان جنـــون زبـــوني زاد عـــن جنـــوني

عجبي !!

نقطـــــة مـــــرارة كمـــــان علـــــى مشـــــروبي

ذوبهـــــا يـــــا ســـــاقي حســـــب مطلـــــوبي

طعـــم الحيـــاة. مـــش برضـــه فيهـــا وفيهـــا ؟

ليـــــــالي وردي ونهـــــــارات خرّوبـــــــي ؟

عجبي !!

وســـــط الحطـــــام اتفرجـــــوا يـــــا أنـــــام

تمثـــــال ملـــــك. ومبولـــــة م الرخـــــام

لتتـــــين نحـــــتهم نفـــــس أســـــطى الحجـــــر

وكـــــانوا ذات يـــــوم كتلتـــــين لســـــه خـــــام

عجبي !!

عيـــــد. والعيـــــال اتنططـــــوا ع القبـــــور

لعبـــــوا اســـــتغامية. ولعبـــــوا بـــــابور

وباللونـــــــات. ونايلونـــــــات شفتشـــــــي

والحـــــزن ح يـــــروح فـــــين جنـــــب الســـــرور

عجبي !!

أنـــــا قلبـــــي كـــــورة.. والفـــــراودة أكـــــم

يامـــــا اتـــــنطح وانشـــــاط.. ويامـــــا اتعكـــــم

واقـــــول لـــــه كلـــــه ح ينتهـــــي فـــــي المعـــــاد

يقـــــول بســـــاعتك ؟ والا ســـــاعة الحكـــــم ؟

عجبي !!

الضـــــحك قـــــال يـــــا ســـــم ع التكشـــــير

أمشـــــير وطوبـــــة وانـــــا ربيعـــــي بشـــــير

مطـــــرح مـــــا بـــــاظهر بانتصـــــر ع العـــــدم

انشـــــــاالله أكـــــــون رســـــــماية بالطباشـــــــير

عجبي !!

أهـــوى الهـــوى وهمـــس الهـــوى فـــي العيـــون

وبســـــــمة المغـــــــرم. ودمعـــــــه الحنـــــــون

وزلـــــــزلات الحـــــــب نهـــــــد الصـــــــبا

أكـــــون أنـــــا المحبـــــوب. أو لا أكـــــون

عجبي !!

يـــــا ملـــــونين البـــــيض فـــــي شـــــم النســـــيم

لـــــون الحنـــــين والشـــــوق وخمـــــر النـــــديم

مـــــــاتعرفوش ســـــــايق عليكـــــــو النبـــــــي

تلونـــــــوا الأيـــــــام بلـــــــون النعـــــــيم ؟

عجبي !!

الـــــدنيا صـــــندوق دنيـــــا. دور بعـــــد دور

الدكـــــة هـــــيَّ. وهـــــيَّ كـــــل الـــــديكور

يمشـــي اللـــي شـــاف. ويســـيب لغيـــره مكـــان

كـــــان عربجـــــي أو كـــــان امبراطـــــور

عجبي !!

قطـــــي العزيـــــز راقـــــد علـــــى الكنبـــــات

فـــــي نـــــوم لذيـــــذ.. وبـــــيلحس الشـــــنبات

وأنـــــا كـــــل عـــــين فنجـــــان مدلـــــدق قلـــــق

صـــــدق اللـــــي قـــــال إن الحيـــــاة منابـــــات

عجبي !!

قـــــالوا السياســـــة مهلكـــــة بكـــــل عـــــام

وبحورهـــا يـــا بنـــي خشـــنة مـــش ريـــش نعـــام

غـــــوص فيهـــــا تلقـــــى الغرقـــــانين كلهـــــم

شـــــايلين غنـــــايم. والخفيـــــف اللـــــي عـــــام

عجبي !!

ســـــلام ســـــلام.. ســـــلام ســـــلام.. ســـــلام

كـــــلام كـــــلام.. كـــــلام كـــــلام.. كـــــلام

هـــــز الـــــورق يـــــا صـــــاحبي كِـــــدَهوّه

يطلـــــع كـــــلام ســـــلام. وســـــلام كـــــلام

عجبي !!

فـــــوق تحـــــت. ورا قـــــدام. يمـــــين شـــــمال

فـــــي الجـــــوّ. تحـــــت الميـــــة. أو فـــــي الرمـــــال

طَلَـــــب الكمـــــال يحـــــرم علـــــى الممكـــــن

والممكنـــــــات دول محـــــــرومين م الكمـــــــال

عجبي !!

هـــات يـــا زمـــان. وهـــات كمـــان يـــا زمـــان

غيـــر بســـمة الشـــجعان مـــا منـــي يبـــان

هـــو اللـــي داق الفرحـــة يـــوم ثورتـــه

يقـــدر يعـــود ولا ثانيـــة للأحـــزان ؟

عجبي !!

عبثًـــا بـــاقول واقـــرا فـــي ســـورة عـــبس

مـــاتلومش حـــد إن ابتســـم أو عـــبس

فيـــه نـــاس تقـــول الهـــزل يطلـــع جـــد

ونـــاس تقـــول الجـــد يطلـــع عبـــث

عجبي !!

يـــومي علـــى الله تنتهـــي وتغيـــب

الشـــمس. وتعـــود تـــاني يـــوم لهاليـــب

زي الحيـــاة. مأســـاة. ومـــن كترهـــا

بقـــى لا انتهاءهـــا وابتـــداءها عجيـــب

عجبي !!

علـــم اللَـــوع أضـــخم كتـــاب فـــي الأرض

بـــس اللـــي يغلـــط فيـــه يجيبـــه الأرض

أمـــــــا الصـــــــراحة فأمرهـــــــا ســـــــاهل

لكـــــن لا تجلـــــب مـــــال ولا تصـــــون عـــــرض

عجبي !!

أنـــــا كـــــانلي أب. وكـــــان رئـــــيس محكمـــــة

ســـــتين ســـــنة. فـــــي قضـــــية واحـــــدة اترمـــــى

ســـــــتين ســـــــنة وطلـــــــع بـــــــراءة وخـــــــرج

يشـــــكي الحيـــــاة والمـــــوت لـــــرب الســـــما

عجبي !!

قـــــــالوا ابـــــــن آدم روح وبدنـــــــه كفـــــــن

قـــــالوا لأ بـــــدن. قـــــالوا لأ ده روح فـــــي بـــــدن

رفـــــرف فـــــؤادي مـــــع الرايـــــات فـــــي الهـــــوا

أنـــــا قلـــــت : لأ . روح فـــــي بـــــدن فـــــي وطـــــن

عجبي !!